أحلام الفلاسفة

موسى


أحلام الفلاسفة

الغلاف للفنان جمال قطب

سلامة موسى

أحلام الفلاسفة

سلامة موسى للنشر والتوزيع
تراث من الكفاح الهادف

الطبعة الأولى ١٩٢٦

مقـــــــدمة

لكل منا حياتان ، حياة الواقع التى يعيشها الإنسان متأثرا بالوسط الزمانى والمكانى ، وحياة الخيال التى يرغب فى أن يعيشها . والفرق بين الحياتين هو الفرق بين الوجود الناقص وبين التخيل الكامل . أو بين ما هو موجود على الرغم منا وبين ما يجب أن يوجد وفق خيالنا وطبق رغباتنا .

والعقل الإنسانى مطبوع على أن يتم بخياله ما يراه ناقصا فى الحقائق الواقعة حوله . ومهما قيدنا العقل ، ومنعنا من التفكير فيما يهوى، فإنه ينفلت منا ، ولو وقت النوم ، فيعوضنا من نقصنا الحقيقى كمالا متوهما . فمن جاع فى النهار وقت صحوه أكل فى الليل أشهى الأطعمة وقت نومه . ومن تحرق فى النهار لرؤية حبيبته رأى طيفها يتهادى فى الليل وهو مستغرق فى سباته . بل نحن نحلم فى يقظتنا ، فنستسلم للخواطر الجميلة ، لنرى القصر الفخم الذى نسكن فيه بخيالنا والجياد المطهمة تجر عرباتنا . كما نرى الخدم والأتباع ، نخاطبهم بلهجة الرياسة ، ونحن فى فراش وثير لنا زوجة محبة وأولاد مطيعون وحدائق

غنـــاء نتنزه فيها . كل هذا ، وأكثر منه ، نراه في خيالنا لأننا نشعر بالنقص في الحقائق الواقعة حولنا . ومن ضروب الراحة التي يلجأ إليها العقل أن يعيد التوازن في رغبات الجسم وشهوات النفس . وهذا هو السبب في أن الإستغراق في الضحك يعقبه شيء من الغم . والإنغماس في الشهوة يليها شيء من الإشمئزاز والفتور . فإذا كانت حقائق الحياة مؤلمة ، تعكر صفاء الذهن وتكده بالتدبير لملاقاة تكاليفها وآلامها ، كان من ضروب الراحة لهذا الذهن أن يعمد إلى ما يناقض هذه الحقائق من الخيال، فيرسم لنفسه عالماً آخر غير هذا العالم كله نعيم وسرور

فكل منا يعيش إذن في عالمين : عالم الواقع ، وهو أبداً ناقص ، وعالم الخيال وهو أبداً كامل ، على النحو الذي نفهم به معنى الكمال ، فإذا آلمتنا الحقيقة لجأنا إلى الحياة ، أو قل بعبارة أخرى إذا رأينا الواقع خارجنا ناقصا مختلا مؤلما فررنا منه إلى الخيال داخل أذهاننا فأعتضنا من الحقيقة حلماً

وإياك واحتقار الأحلام ..

وهل تحتقر الآلهة ؟

إعتبر المصريين القدماء لما أستبدت بسواد الأمة فئة قليلة العدد من الأمراء والكهنة والأجناد، واستحوذوا على ثروة البلاد، ورأى أفراد هذا السواد أنهم يعيشون في حرمان ، لا ينعمون بشيء من نعم هذه الحياة، فعمدوا إلى خيالهم فأخترعوا عالما آخر يعيش فيه المحرومون

المظلومون . يؤجرون أجرا حسنا علي ما قاسوه في هذا العالم وينعمون هناك بما لم يقدروا أن ينعموا به هنا . فكأن خيالهم قد ثار علي الحقيقة، وخرج عقلهم الباطن علي عقلهم الظاهر ، وأوجد نوعا من التوازن في حياتهم ، بحيث جعل ما توهمه من ملذات العالم الثاني بنسبة ما هو واقع من آلام هذا العالم الأول . لعلك من هنا تدرك تلك النزعه الإلحادية التي تعتري بعض الشياطين من الإشتراكيين والشيوعيين حين يقاومون الأديان ويحضون السواد علي تركها ، إذ يخشون هذا التوازن الذي يحدثه الإيمان بعالم آخر وما يعقبه من تهدئة لنفس العمال ، وهم إنما يرغبون في إحداث القلق والاستعار في نفوسهم . والفيلسوف والعالم والأديب كلهم يتخيل ويحلم ، وهم أكثر خيالا وحلما إذا اضطربت أحوال المعيشة وتنافر الخيال المشتهي مع الواقع الحتم . ونحن في كل أزمه تقع ، أو نكبة تلم بنا ، نجدنا إزاء ثلاثة حلول لنا أن نختار منها واحدا . فأما أن نفر ، كما يفعل الناسك ، يزهد في الحياة فيلجأ الي صومعته مهزولا كالأسد الجريح يذهب الي مغارته . واما أن نكافح مدافعين ، وهذا ما يفعله معظمنا . واما أن نهاجم ، وهذا ما يفعله الأديب أو العالم أو الفيلسوف . فهو لا يفر ، وهو أيضا لا يكتفي بالمكافحة ، وإنما يتخيل وسطاً يجعله بديلا من هذا الوسط الحقيقي ، فيهاجمه به ، ويدعو الناس إلى حلمه حتى يستبدلوا بحقائقهم خياله . ولكل إنسان مزاج خاص . ولكن أمزجة الناس متداخلة . فليس فينا من لا يفكر فى الفـــرار بعض الأحيـــــان . ولم

تكن المهاجرة إلى امريكا إلا فرارا من اوربا. وليس فينا من لا يكافح بعض الأحيان ، بل هذا هو شأننا طول النهار . كما أنه ليس فينا من لا يتخيل ويحلم ، ولو بضع دقائق بعد الغداء ، حين يطمو العقل الظاهر وتتسلل الخواطر بلا قيد ولا شرط

والفيلسوف ، ومن إليه من المفكرين ، يختلفون عن الكاهن المصرى القديم الذى يمثل أحلام سواد الأمة من حيث أنهم لا يجعلون ميدان حلمهم فى العالم الثانى ، فإن همومهم الذهنية مقصورة على هذا العالم. والناس على الارض ، لا الملائكة فى السماء ، هم موضوع كلامهم وخيالهم . فهم يرون من الخبط والخلط فى الهيئة الإجتماعية ، ومن الظلم والإسراف فى معاملات الناس ، ما يحثهم على اختراع نظام أوفى يضمن لهم أكمل ما يتوهمون من صور العدالة والصحة والعمار. فهم يحلمون لنا ونحن أحياء على هذه الأرض ولا يبالون بنا بعد موتنا، لأن الحياة لا الموت هى موضوع تفكيرهم وغاية نظرهم فى الإصلاح

ولا ننسى أن كل إصلاح حدث فى الماضى أو سيحدث فى المستقبل انما هو حلم من أحلام أحد المفكرين . وقد صدق أناطول فرانس فى قوله :

" لولا أحلام الفلاسفة فى الازمنة الماضية لكان الناس يعيشون إلى الآن ، كما كانوا يعيشون قديما ، عراة أشقياء فى الكهوف .لقد كان إنشاء أول مدينة خيالا من أخيلة المفكرين ..ومن الأحلام السخية ظهرت الحقائق النافعة . فالخيال هو مبدأ التقدم ، وفيه محاولة إيجاد المستقبل الحسن "

وفيما يلى قد لخصنا للقراء بعض الأحلام الشهيرة التى رآها الفلاسفة فى يقظتهم ، وتخيلوها عن روية وتدبير ، يرجون بها إصلاح مجتمعهم ، ومنها يقف القارىء على ضرورة الإصلاح التى تخيلها هؤلاء الفلاسفة ، وما كان من أثر الوسط فى كل منهم ، وكيف كانوا يتخيلون المدينة الفاضلة والحكومة الفاضلة وأحسن ضروب الزواج وخير نظام للتربية وما إلى ذلك

ولا شك فى أن القارىء ، وهو يتنقل من ترسيم إلى ترسيم ، ومن برنامج إلى برنامج آخر ، سيدفعه خياله إلى أن يحلم هو أيضا حلماً قد يظن أنه جدير بأن يحشر بين هذه الأحلام . وسواء أكان هذا أم لم يكن فالمؤلف قد تجرأ وحشر حلمه بينها فى "طوبى " توهمها كاملة مستوفية شروط السعادة لمن به كفاية السعادة

س . م

جمهورية افلاطون

يتسم الأدب الاغريقي بشيئين : المجازفة ، والحرية . ولهذا السبب كان الإغريق ولا يزالون للآن مبعث الوحي لكل نهضة أو تجديد في الأدب . لأن المجدد أو الناهض لا يكون كذلك إلا إذا تخلص من القيود العديدة ، سواء أكان مصدرها الشرائع أوالتقاليد . ثم هو لن يكون مجددا إلا إذا كان إحساسه بالحرية أكثر من إحساس غيره بها ، فما يعده غيره فيه مخاطرة يراها هو نفسه رياضة فكرية ليس فيها شيء من المجازفة . فإذا قرأ الإغريق ، واشرب روحهم ، صار مثلهم . يجرى على نسقهم في حرية التفكير والجراءة في الإستنتاج حتى تصير هذه الجراءة طبيعة فيه قد إكتسبها بالألفة مع هؤلاء الإغريق

والحق أنه من عجائب التاريخ أن تقوم نهضة أوربا في القرن الخامس عشر على درس إناس مضى عليهم ألف عام . إذ أننا ننتظر من المجدد أن يترك القديم في بلاه ، وينظر في الحاضر ، ويتطلع إلى المستقبل . ولكن الإغريق على قدمهم وبلاهم لا يزال في آثارهم

(ولد افلاطون سنة ٤٢٧ ومات سنة ٣٤٧ ق.م)

الفكرية ما ينبه أذهاننا ويضطرنا إلى النظر فى أى موضوع نعالجه من زاوية غير تلك التى ألفناها فى البحث . وليس فى معلومات الإغريق أو معارفهم ما نحتاج إلى معرفته ، ولكن نزعة الحرية والمجازفة فى البحث هى التى نحتاج إليها فى كل نهضة أو حركة تجديدية . ومن هنا كانت الروح الإغريقية على الدوام مبعث النهضات الفكرية فى الأدب والفلسفة

ولنضرب بعض الأمثلة على جرأة الإغريق فى تفكيرهم ..

فقد كان " أرسطوطاليس " يقرر أن الآلهة على الرغم من قدرتها لا تستطيع أن تبدل النواميس الطبيعية . فكان بذلك لا يقر لها بمعجزات وكان " توقيد " ينعى على الناس زواجهم جزافا من غير انتقاء ، ويقول إننا نعنى بتأصيل الخراف والخيول أكثر مما نعنى بالإنسان . وأن كرام الناس أقل من كرام الخيل ، لأن لكل أحد من الناس الحق فى التناسل

وكان " ارسطوطاليس " أيضا يعد الجمال شرطا من شروط السعادة

وكان " افلاطون " يبحث فى شيوعية النساء

ففى مثل هذا الوسط الحر نشأ أدب نزيه ، خلو من القيود ، لا يزال إلى الآن كما قلنا يوحى إلى الكتاب والأدباء روح التفكير النزيه الحر الجرىء

ولذلك يجدر بنا أن نبحث حلم أفلاطون فى أول ما نبحث من أحلام

الفلاسفة ، لنرى أى مدينة فاضلة تخيلها لضمان سعادة الناس وراحتهم. فإن جميع من عالجوا هذا الموضوع بعده قد ساروا على طريق حاول هو من قبلهم أن يعده لهم .فما من واحد منهم كتب فى " المدينة الفاضلة " إلا وكانت " جمهورية " أفلاطون وراء ذهنه تلهمه وتجرئه وتسدده

ولا شك فى أن المدينة الفاضلة كما توهمها " الفارابى " ترجع إلى أفلاطون فى الإيحاء ، بل فى بعض الترسيم أيضا ، ولكن الفارابى جرياً وراء النزعة التى كانت سائدة فى عصره إعتمد على " آلهيات " أفلاطون وبحثها وشرحها أكثر مما إعتمد على ترسيم الجمهورية الإنسانى ، حى ليكاد يفقد الإنسان الصلة بين " المدينة الفاضلة " للفارابى و " الجمهورية " لأفلاطون

* * *

تعلم افلاطون وهو صبى فى إحدى مدارس أثينا ، وكان أهم ما فى التعليم وقتئذ أن يستظهر أكبر مقدار من قصائد هوميروس وسائر الشعراء . ثم تعلم بعد ذلك الموسيقى ، والعزف على القيثارة ، وأكب على العلوم الرياضية فبرع فيها . وكان طوال صباه وشبابه لا يفتر عن ممارسة الألعاب الرياضية ، وقد فاز فيها بجوائز

وكانت أول شهواته الذهنية أن يكون شاعراً، وقد ألف درامة شعرية للمسرح.ولكنه بتقدمه فى السن صار يهجر الشعر إلى الفلسفة،

إلى أن التقى بسقراط ، وكان عمره عندئذ عشرين سنة ، فقر قراره على البت فى هذا الموضوع وعمد إلى جميع قصائده فأحرقها وأرصد نفسه من ذلك الوقت للفلسفة . وبقى يلازم سقراط ٦ سنوات ، ورآه وهو يتناول السم سنة ٣٩٩ ق.م . وقد ترك هذا الحادث أثرا مؤلما فى ذهنه، فإنه توجس شراً بعد ذلك من الجماهير وحكومات الشعب

ورأى أفلاطون أن " أثينا " لم تعد ذلك المكان المأمون الذى يستطيع أن يعيش فيه ، فتركها ، وقضى بضع سنوات فى رحلة طويلة زار فيها مصر وإيطاليا ، ودرس عادات الأمم التى حول البحر المتوسط ونظمها السياسية وأديانها وانتفع بكل ذلك عندما شرع يؤلف " طوباه" أو مثله الأعلى فى كتابه " الجمهورية "

وعاد افلاطون إلى أثينا وقد بلغ الأربعين ، فقصد إلى ضيعة صغيرة ورثها عن أبيه ، قريباً من أثينا ، فأقام فيها . وصار الشبان يهرعون إليه للتعلم على يديه . وكان يلقى أحاديثه أو محاضراته فى منزله أو فى حائش من الزيتون بالقرب من ضريح لأحد الأبطال يدعى أكاديموس . ومن هنا سميت مدرسته " أكاديمى " وهى اللفظة التى تطلق إلى الأن على المجامع العلمية . وربما كانت الأكاديمية التى أنشأها أفلاطون أولى الجامعات فى العالم ، فقد انتظم فيها التعليم على النسق الحديث . ولم يكن أفلاطون يجزم بشىء ، وإنما يناقش ويحتكم إلى العقل وكان يفرض على جميع الطلبة أن يدرسوا الرياضيات قبل

أن يشرعوا فى درس الفلسفة

وكان أفلاطون ، لتربيته الأدبية الأولى ، ثم لثقافته العلمية الثانية ، يتكلم بلغة الأديب ويفكر تفكير العالم . ولذلك كان يستهوى الطلبة ببيانه . ولقد تخرج على يديه أرسطوطاليس وتعلم منه قيمة البيان فى الكتابة حتى الكتابة العلمية . وقد قيل فيه : لو كانت الآلهة تتكلم باللغة الإغريقية لنطقت بها كما ينطق أفلاطون

وكان العصر ، بين سنة ٦٠٠ وبين سنة ٣٠٠ قبل الميلاد ، عصر بناء المدن فى بلاد الإغريق . فلم تكن الدولة كما نعرفها الآن تؤلف من عدة مدن وقرى ومستعمرات خارجة عنها أو بعيدة منها معروفة عند الإغريق فى بلادهم . وإن كانوا قد سمعوا عنها عند الفرس والمصريين . فكانوا إذا تصوروا حكومة لم يتجسم فى أذهانهم سوى المدينة . أما القصر فلم تكن له شخصية قانونية عندهم . ولم يكن أفلاطون هو الوحيد الذى تخيل حلم المثل الأعلى للحكومات والمجتمع

فقد ذكر أرسطوطاليس أن من يدعى " فالياس " قد تخيل مثل هذا الخيال ، وقال بوجوب المساواة فى حقوق الإمتلاك وأن " هبودامس " أيضا قد وضع كتاباً فى تخطيط المدينة الفاضلة

ولكن جمهورية أفلاطون هى الأثر الباقى من تلك الأحلام،وقد تخيلها عقب تلك الحرب الرائعة التى نشبت بين اسبارطة وبين أثينا

وطالت مدتها وأمتد لهيبها إلى جملة بلاد فخربتها ونشرت الفوضى فى مجتمعاتها . والخراب والدمار والفوضى التى تحدثها الحروب تجرىء الناس على التفكير والترسيم،وتحوجهم إلى الإقرار بسوء النظم القديمة وضرورة اختطاط الخطط الجديدة . وكما فكر الرئيس ولسون فى إيجاد عصبة الأمم عقب الحرب العالمية الأولى ، فكر أفلاطون أيضا عقب حروب اسبارطة وأثينا فى ايجاد نظام جديد يضمن للناس السعادة والرخاء

لم تكن الدول فى عهد أفلاطون قطراً بل كانت مدينة . لذلك قصر حلمه على المدينة لا على القطر . بل هو يجعل مدينته صغيرة بحيث يمكن اجتماع جميع سكانها لخطيب واحد ، أو يمكنهم أن يشتركوا فى لعبة واحدة ، ويمكنهم التعارف والمصادقة فلا يكون أحدهم غريباً عن الآخر

ولنذكر أن وسائل الإشتراك فى الرأى والتعارف الموجودة بيننا الآن لم تكن موجودة فى زمنه . فنحن نتعارف إلى حد كبير بالصحف والتلغراف والتليفون والبريد . ثم أن وسائل المواصلات نفسها تقرب البعيد من المسافات وتجعل الإجتماع ممكناً على الرغم من بعد الشقة بين المجتمعين . ولكن الحال لم تكن كذلك فى زمن أفلاطون . ولذلك جعل مدينته صغيرة ، يبلغ عدد سكانها خمسة آلاف نفس فقط

فجمهورية أفلاطون هى قرية متمدينة حولها حقول خاصة بها للزراعة ، وأهلها فى حال وسط بين الترف وبين الفاقة . فلا الترف يكسبهم الرخاوة التى تبلد الجسم والحواس، ولا الفاقة تضعف أجسامهم وتكدهم فى العمل الشاق . ثم أن الفاقة والترف كليهما يعود بأسوأ العواقب على الفنون . ولا يمكن إغريقياً أن يفكر فى مثل أعلى لا يعنى الناس فيه بالفنون . فجمهوريته خالية من الغنى ومن الفقر لأن : الأول يلد الترف والرخاوة ، والثانى يلد الدناءة والرذيلة . وكلاهما يحدث الاستياء

والناس فى الجمهورية سواء فيما يملكون ، ويحصلون على ما يحتاجون إليه عن حاجة حقيقية ولا ينالون ما لا يحتاجون اليه ، وكانت غاية أفلاطون توفير السعادة للناس ، ولكن هذه السعادة لا تنال بما تملك من عرض الدنيا،بل بما فى أنفسنا من خصوبة وزكاوة .فسعادته ليست سعادة النهم الذى يلذ له إلتهام الطعام ، بل سعادة الراقص أو العازف الذى تلذ له حركاته وما فيها من خفة ورشاقة . فهو لذلك يساوى بين الناس فيما يملكون ، لأنه لا يرى أن الإمتلاك يميز شخصا على آخر من حيث السعادة

والهيئة الاجتماعية فى هذه الجمهورية مؤلفة بالطبع من أفراد، ولكن اجتماع هؤلاء الأفراد ليس اجتماعا اعتباطيا،إذ هو مؤتلف ائتلاف أعضاء جسم الإنسان فى شخصه

فكل إنسان فى هذه الهيئة يخدمها وفق كفايته وقدرته كما يخدم العضو الجسم . وإنما يحدث السلام والوفاق بين أعضاء هذه الهيئة إذا اختص كل عضو بوظيفته لا يتعداها إلى غيرها . فالعدل فى هذه الجمهورية هو : " إيجاد مكان لكل إنسان ، وأن يكون كل إنسان فى مكانه " . على نحو ما نرى فى الجوقة الموسيقية . فإن الخلل يصيب الجوقة جميعها إذا خرج أى إنسان منها من مكانه ، والوفاق بين نغماتها يزول إذا قام واحد منها بتبديل ما كلف به من النغم لإيجاد اللحن العام للجوقة جميعها

ولكن كيف يمكن أفلاطون أن يضمن بقاء كل إنسان فى صناعته ومكانه لا يتخطاهما إلى غيرهما ؟

هنا احتاج أفلاطون إلى إيجاد نظام الطبقات ، فطبقة تختص بدرس الحكمة وتدبير شئون الجمهورية السياسية والحكومية ، وهذه هى طبقة الأوصياء . وطبقة تختص بالجندية لحماية المدينة ، فهذه طبقة المقاتلة . وطبقة تختص بالزراعة والصناعة ، وهذه هى طبقة العمال

وعناية أفلاطون هى بالطبع بالطبقتين الأولتين ، أما الطبقة الثالثة فلا يبالى بها كثيراً ، إذ هى رعية حكومية ، فوقها طبقة الأوصياء يأمرون وينهون ، ودونها طبقة المقاتلة تنفذ أوامرهم . وليست هذه الطبقات جامدة لا يمكن أحداً أن يرتقى من طبقة إلى طبقة إذا ظهرت منه كفايته وهو بعد صغير يمكن تربيته

وقد ألغى حقوق امتلاك الأشياء وحقوق امتلاك الزوجات بين طبقة الأوصياء وطبقة المقاتلة ، ولكنه أبقاهما بين طبقة العمال . وهو إنما ألغى الزواج والامتلاك بين هاتين الطبقتين عناية بهما ، لأنه يريد أن يخضع أفرادهما لنظام خاص حتى ينشأ أفراد كل طبقة على صبغة خاصة

أما الإبتداء فى تقسيم الطبقات فمن الصعوبة بمكان ، فإنه ينبنى بالطبع على الانتخاب . يختار الصبى الذكى لكى يكون وصياً ، فيربى تربية خاصة ثم يختار صبى آخر يميل إلى الرياضة البدنية وتبدو عليه دلائل القوة فيختار لطبقة المقاتلة

ولننظر فى الوسائل التى يتخذها أفلاطون لتخليد هذا النظام ودوام بقائه . فهذه الوسائل تتلخص فى ثلاثة أشياء ، وهى : التوليد ثم التربية ثم الرياضة اليومية

فأما فى طبقة العمال الذين يزرعون ويصنعون فليس هناك توليد مقصود بينهم ، فهم يتزوجون وينسلون . أما تربية أولادهم فهى التربية الشائعة بين الزراع والصناع . يتتلمذ الصبى عند زارع أو صانع فيتعلم منه حرفته ، ويتخرج عليه ، ويحترف هذه الحرفة ، وليس له رياضة يومية خاصة

أما طبقة المقاتلة فيعيشون فى ثكنة خاصة . فلا يملكون ولا يتزوجون ، وإنما يتعارفون إلى النساء ، فإذا حملن منهم لم ينتسب

الابن إلى أب معروف ، بل ينشأ مقاتلا ، يتربى تربية الطبقة ، ولا يعرف ولاء لغير وطنه ، ولا يبالى بمصلحة لغير مدينته . ثم يربى الطفل تربية قاسية ، فإذا كانت به عاهة قتل ونبذ ،أما إذا وافق جسمه صناعة القتال أحتفظ به وعنى به ودرب تداريب خاصة لتقوية جسمه وذهنه

وكذلك الحال فى طبقة الأوصياء . يتلاقح النساء والرجال بدون تعيين امرأة بعينها لرجل بعينه ، حتى يضيع النسب ولا يعرف أحد والديه . وهذا مع العناية بالانتقاء . فأجمل الرجال وأكثرهم حكمة وعقلا يشجع على التناسل حتى يكثر أولاده ويرثوا صفاته فى الشجاعة والعقل . وكان أفلاطون يرى أن التفوق فى خدمة الجمهور يجب أن يمنح صاحبه حق التلاقح مع عدد من النساء أكبر مما يمنح غيره . وليس من الواضح هل قال أفلاطون ذلك على سبيل مكافأة الوصى لحسن بلائه فى خدمة الجمهورية أو لأنه يريد الإكثار من نسله لأن تفوقه فى الخدمة دليل تفوقه فى العقل

ولم يكن أفلاطون يسمح للطبقات بالاختلاط الجنسى ، فلكل طبقة نساؤها ورجالها لا يتعدونها إلى غيرها . فكأنه كان يريد أن يجعل كل طبقة سلالة خاصة لها صفات خاصة . وكان كما قلنا "اسبرطى" المزاج يكره الضعف والمرض ، فكان يقول بقتل جميع الأطفال المؤوفين وتحديد عدد أطفال طبقة العمال حتى لا يفيضوا

على غلات الأرض

أما تربية الأوصياء فكانت التربية الإغريقية المعروفة فى زمن أفلاطون مع التعديلات التى يحتاج إليها نظامه . ولما لم يكن للأوصياء عائلة ، فإن أولادهم يوكلون إلى مربين يعهد اليهم ثقافة أجسامهم بالألعاب الجمبازية وثقافة عقولهم بالموسيقى ما داموا صبياناً

ثم يلقن الصبى ضروب المعارف على طريقة اللعب ، بحيث لا يشعر أنه يكد للتعليم ، وإنما يتعلم وهو يلعب مسروراً . فإذا شب وضع له نظام آخر فى للتعليم . ثم يمتحن الشبان من وقت لآخر ، فلا يدخل طبقة الأوصياء سوى الذين ثبت بالامتحان أنهم أهل لأن يتولوا حكومة المدينة . ويعيش الأوصياء فيما يشبه الثكنة ، ولا يجوز لأحد منهم أن يقتنى بيتاً أو مخزناً ، ولا يجوز لهم أن يمتلكوا أى شىء إلا تلك الأشياء الضرورية التى لا يستغنى عنها إنسان ، وهم يكافأون مكافأة معتدلة تكفى حاجتهم ، بحيث لا يشعرون بضيق الفاقة ولا يجدون أيضا سبيلا إلى الترف . وهم يأكلون معا ولا يجمعون الذهب أو الفضة. والقصد من كل هذا النظام أن يبقى الوصى نزيها لا تشغله مشاغله الخاصة عن النظر فى شئون المدينة وينحرف رأيه فى حكم لمراعاة مصلحة خاصة . فليس له قريب يحابيه ، أو ولد يدخر له المال ، وكذلك أيضاً لا يختلط بالناس ولا يعاشر أحداً من غير طبقته فتستحيل المعاشرة إلى مصاحبة أو مصادقة تحول دون النزاهة

والأوصياء يكونون فى شبابهم من طبقة المقاتلة يقضون وقتهم فى تثقيف أجسامهم وعقولهم . فإذا بلغوا الخامسة والعشرين عهدت إليهم الرياسة فى بعض أقسام الجيش وجرئوا على اكتساب التجارب . فإذا بلغوا الثلاثين ، وجاوزوا الإمتحانات الشاقة ، صاروا أوصياء وعندئذ تقتصر أعمالهم على درس الفلسفة ووضع نظام الحكم

وليست مهمة الإوصياء سن القوانين ، وانما هى اختراع نظم الحكم أو وضع الدساتير للمدينة ، لضمان حرية الأفراد . فالحرية هى الهم الأول الذى يهتم له أفلاطون ويعدها أخطر ما ينبغى العناية به . فهو لذلك يوكل حراستها إلى الأوصياء الذين يجب عليهم اختراع الأنظمة التى تضمن عدم العبث بها . فالناس فى مدينة أفلاطون يحكمون أنفسهم ، وانما يضع الأوصياء الدساتير لهم ، سواء أكان ذلك لطبقة العمال أم لطبقة المقاتلة ، فهم أشبه بالمشرفين منهم بالحكام . فإذا وجدوا أن الدستور الموضوع لطبقة العمال مثلا لا يفى بحاجتهم استبدلوا به غيره

وهذه الأفكار هى أعقد ما فى الجمهورية . فإن أفلاطون يعتقد أن وراء هذا الكون المحسوس أفكاراً قد سبقته ، وهى منه بمثابة الأصل والروح . وهذه الأفكار هى الشىء الثابت ، بينما المحسوسات التى نحس بها هى الشىء الزائل . فأنا أكتب الآن مثلا بقلم محسوس ، ولكن فكرة القلم قد سبقت مادة القلم

والفكرة هى الثابتة وأما العادة فهى الزائلة . ومن هنا اهتمام أفلاطون بالرياضيات ، لأنها كلها أفكار . وهو يرى ضرورتها لكل من ينشد حكم الناس . ثم يخرج الطلبة بعد درس الأفكار إلى المجتمع ، وعليهم أن يعيشوا كل منهم بمجهوده الفردى ، وكما يتيسر له ، حتى إذا بلغ الخمسين عين وصياً للدولة

ولكن كل هذا لا يقنع أفلاطون . فهو يقول بكل صراحة : " ان التربية يجب أن تبدأ قبل الولادة " فلذلك يجب أن يكون الأبوان سليمين . ويجب على الرجل أن يتزوج بين الخامسة والعشرين والثلاثين. والولد النغل ، أى ثمرة الزنى ، والولد المشوه ، كلاهما يجب قتلهما عقب ولادتهما

* * *

وقد يرى القارىء أن أفلاطون قد أستسلم للخيال فى توهمه إلغاء الزواج والامتلاك فى طبقتى المقاتلة والأوصياء . وهذا صحيح إلى حد ما ، ولكن ينبغى أن نتذكر أن الرهبانية المسيحية ، وخاصة نظام اليسوعيين منها ، قد سار على نحو من هذا النظام . فالراهب لا يملك زوجة ولا شيئا آخر ، ومع ذلك نجح هذا النظام . وإذا كان الإنسان قد أستسهل إنكار الذات والتضحية بغرائزه الجنسية وغريزة التملك فى سبيل الخدمة الدينية فلــــم لا يستسهل ذلك فى سبيل خدمة الإنسان ؟

وإذا كان فى الناس جماعات يرصدون حياتهم لخدمة الله ، يحبسون أنفسهم فى أديار لا يخرجون منها مدى حياتهم ، يقضون أيامهم فى الصلاة والتعبد ، فلم لا يكون بينهم من يفعل ذلك فى سبيل درس الحكمة وإيجاد النظم للحكومات وضمان الحرية للأفراد ؟

فيجب ألا نتوهم أن افلاطون قد استسلم للخيال كل الإستسلام ، فهو يريد أن يكل حكم الناس إلى الفلسفة . وهو يرى ، كما رأى بعده نبى الإسلام ، أن الولد مجبنة ومبخلة لأبيه . فعمد إلى سبب ذلك فوجده فى الزواج ، فألغاه ، حرصاً على أن يبقى الوصى أو المقاتل نزيهاً لا يعمل إلا لمصلحة مدينته . وقد ذكرنا الرهبان دليلا على إمكان نزول الطبيعة البشرية عن حق التمتع بالزواج والإمتلاك . ونذكر جيش الإنكشارية عند الأتراك دليلا على أن الرباط العائلى يقلل من شجاعة الناس . فإن هذا الجيش كان يؤلف من صبيان النصارى الذين يؤسرون ، فينشأون وهم لا يعرفون لهم عائلة ، فكان هذا من أسباب شجاعتهم واستماتتهم فى القتال

حلم توماس مور

بعد أن مات الإغريق ماتت الحرية الفكرية فى جميع أنحاء العالم إلا بصيصاً منها بقى عند العرب ، يومض ويخبو ، تبعا للزمان والمكان. فقد كان الإغريقى جريئاً ، يجازف فى الخيال ولا يبالى بالآلهة أو بالناس. وذلك لأن الآلهة والناس ، كليهما ، لم يكن لهما ذلك السلطان الذى صار لهما فيما بعد ، أى بعد ظهور المسيحية والاباطرة والملوك . فقد كانت الآلهة الإغريقية كثيرة العدد ، كل منها مختص بعمل ، فلم تكن له حرمة آله المسيحية أو آله الإسلام ، أو مالهما من السيادة الأتوقراطية ، والعلم بكل شىء ، وأملاء كل شىء على الناس . وكذلك لم يكن لهم ملوك مستبدون يمنعون الناس من التفكير فى أشكال الحكومات وسياسة الدول وسن الشرائع

لم يكن شىء من ذلك عند الإغريق ، فكانت أفكارهم تنطلق حرة تسبح أينما تشاء . وكان فلاسفتهم يكتبون فى كل ما يعرض لهم بلا تحرج،لا يتورعون من دين ولا يخشون بأس ملك. ثم كانت المسيحية

(ولد مور سنة ١٤٧٨ ومات سنة ١٥٣٥)

وإلهها قادر علي كل شيء عارف بكل شيء . فخرج الملكوت من يد الإنسان الي يد الله . ومن هذا العالم إلي العالم الآخر . فإذا كان "أفلاطون" قد وجد المجال واسعاً لأن يتخيل ويحلم في إيجاد ملكوت أرضي ، ينال فيه الناس السعادة والهناء ، فإن المسيحية قد ضيقت هذا المجال لأنها إوجدت من جنة النعيم في الآخرة بديلا من مثل هذه الأحلام. ولم تكن هذه الأرض في نظر المسيحية سوي دار بلاء وتجربة يعبرها الناس إلي جنة النعيم . وهذا أيضا هو نظر الإسلام .ثم كان ملوك النصاري وخلفاء المسلمين عائقا آخر يمنع التخيل والبحث في المثل العليا للحكومات والهيئات الاجتماعية . لأن بحث هذه الموضوعات دليل السخط علي النظم الموجودة التي لا يرضي ملك أو خليفة بانتقادها

ثم كانت النهضة الأوربية ، فعادت أوربا إلي نفسها القديمة وأخذت تعني بتاريخ الاغريق . فصارت تدرس ثقافتهم ، وتتمثله، حتي نزعت نزعة اغريقية جديدة . فصار علماؤها وفلاسفتها يتنبأون ويتخيلون ويحلمون

وكان من هؤلاء الحالمين " توماس مور " الإنجليزي ، وكان وزيراً لهنري الثامن . فلم يكن حلمه مبنياً علي أُسس الخيال ، فقد خبر الدول وعرف من ممارسته الطويلة للسياسة بعض حقائق الطبيعة البشرية. فهو لذلك يتخيل ، ولكنه يبني خياله علي أساس من الحقائق

وبطل حلم توماس مور برتغالي يدعي " هيتلوداي " كان يعرف الإغريقية ، وقد أعتاد المجازفات الفكرية من فلاسفة هذه اللغة ، ولكنه لم يكن رجل كتب فقط،فقد عرف رجلا يدعي " فسيوتيوس " زار معه أمريكا الشمالية والجنوبية وجزائر الهند الشرقية ، وهناك رأي بلاداً تخالف ما ألفه في بلاده من حيث المؤسسات والنظم وتركيب الهيئة الإجتماعية . فهو لذلك يروي ما رآه في هذه الرؤيا

يقول هيتلوداي أنه زار جزيرة طولها مائتا ميل ، قد خطت في وسط المحيط بهيئة الهلال يتقوس حول خليج كبير بحيث يسهل الدفاع عنها من غارة أوعدو . وبالجزيره ٤٥ مدينة ، أقربها تبعد عن الأخري بمقدار ٢٤ ميلا ، وأبعدها تكون علي مسيرة يوم منها ، وعاصمة الجزيره بلدة تدعي " أموروط " . ولكل بلدة اختصاص قضائى علي ما حولها من الأرض إلي ما يبعد عنها بعشرين ميلا

والزراعة هي أساس المعيشة في هذه الدولة ، فليس فيها من يجهل هذه الصناعة . فهناك فلاحون يقضون كل حياتهم في الحقول ، لهم دساكرهم منبثة في الريف ، ولكن عند الحصاد يرسل عمال من المدن لمساعدة الفلاحون . وكل دسكرة تحتوي علي أربعين رجلا وأربعين إمرأة. وفي كل عام يعود عشرون من هذا العدد الي المدينة ويستبدل بهم عشرون آخرون يرسلون من المدينة إلى الدسكرة كي يتعلموا الفلاحة

والفلاحة متقدمة من وجهيها الاقتصادى والإنتاجى . فهم يعرفون كيفية إنتاج الدجاج بطريقة صناعية ، ويعرفون مقدار الطعام المطلوب لأهل الجزيرة فيزرعون ما يكفى أو ما يفيض قليلا عن الكفاية

ومع أن جميع سكان الجزيرة يعرفون الفلاحة ، وقد مارسوها بعض عمرهم ، فإنهم جميعا يعرفون صناعة أخرى يزاولونها ، كالبناء والتجارة والحدادة والحياكة . وجميع الصناعات متساوية القيمة فلا تفضل واحدة أخرى . والناس يتبعون آباءهم فى الصناعات . فالصناعة تمارسها العائلات لا الأفراد ، وإذا مال واحد إلى صناعة تخالف ما يزاوله أبوه ذهب إلى عائلة أخرى ، فتتبناه العائلة ، ويأخذ فى تعلم صناعتها . ويمكنه إذا أراد ، أن يتعلم صناعة أخرى باتباع هذه الطريقة نفسها . ثم له أن يختار ما شاء منهما

وينحصر عمل القضاة تقريباً فى إجبار الناس على العمل . وليس معنى هذا أن أهل الجزيرة يكدون أنفسهم ليل نهار ، فإن لهم توقيتاً للعمل والراحة . فهم ينامون ثمانى ساعات،ويشتغلون ستاً، ويتصرفون بسائر اليوم كما يشاءون . وهم يشتغلون هذا العدد القليل من الساعات لأن كل إنسان مجبر على العمل ، فليس بينهم أشراف أو امراء أو شحاذون يعيشون عالة على غيرهم . ولا يعفى من هذا الأجبار سوى الطالب فى المدرسة أو القاضى

وبين المدينة ودساكر القرى مقايضة تحدث باحتفال عام كل شهر.

فيأخذ الفلاحون ما يحتاجون إليه من صناعة أهل المدن،ويأخذ أهل المدن ما يحتاجون إليه من غلات الريف . ولا بد أن لهذه المقايضة نظاماً ، ولكن هيتلوداى لم يذكر هذا النظام

والمدينة مؤلفة من عائلات ، والصناعة كما قلنا تمارسها العائلة لا الفرد . قال هيتلوداى : " كل مدينة مقسمة أربعة أقسام ، وفى وسط كل قسم سوق . فما تحضره العائلات من مصنوعاتها يؤخذ ويصف كل إلى نوعه فى أمكنة خاصة . ثم يذهب الآباء ويأخذون حاجاتهم من هذه الأشياء بدون أن يدفعوا ثمنه أو يضعوا شيئا بدلا منه على سبيل المقايضة

" وليس هناك ما يدعو إلى أن ينكر على أحد طلبه ، وذلك لوفرة ما هو معروض من هذه الأشياء،ولأنه لا خوف من أحد أن يأخذ أكثر من حاجته ، إذ ليس هناك ما يغريه بذلك لأنه متأكد من وجود هذه الاشياء على الدوام "

ثم يقول : " ان خوف الحاجة هو الذى يوجد النهم والطمع فى نفوس الحيوان ، ولكن إلى جانب الخوف نجد عند الإنسان خصلة أخرى هى الكبرياء،حيث يتوهم الإنسان أن تفوقه على غيره فى الأبهة مما يزيد فى مجده وعظمته ، ولكن ليس أحد يسعه أن يفعل ذلك فى الجزيرة "

فتوماس مور لا يحلم بشيوعية النساء ، كما حلم أفلاطون ، ولكنه يحلم بشيوعية الأملاك . وهو لكي يحقق هذه الشيوعية يلغى النقود . فالناس يأخذون حاجاتهم بدون ثمن

وفى كل عام يجتمع القضاة (وهم الحكام أيضاً) فى العاصمة "امورروط" فينظرون فى غلات كل منطقة ويرسلون إلى المناطق المحتاجة إلى بعض السلع ما تحتاج إليه من فائض المناطق الأخرى

وليس للذهب أو الفضة أو الجواهر قيمة عند أهل الجزيرة . ولذلك فالرؤيا كما يراها توماس مور لا تقاس إلى رؤيا يوحنا ، من حيث الزينة واللآلأ ، مع أن الأولى يقصد تحقيقها فى هذا العالم والثانية لا تتحقق إلا فى السماء . وغريب أن يدعو رجل الدنيا إلى ملكوت خلو من الزينة والجواهر فى حين يدعو إليها رجل الدين فى ملكوت السماء

أما "امورروط " عاصمة الجزيرة فتقع على تل ، وحولها سور ، والمنازل مشيدة على نسق واحد حتى كأن الشارع بناء واحد . وسعة الشارع عشرون قدما . ووراء كل منزل حديقة يعنى السكان بها ويتعهدونها حتى تبقى فى نضارة دائمة . وفى كل شارع قاعات خاصة مبنية على مسافات متساوية ، يقيم فيها القضاة (الحكام) وكل منهم ينظر في شؤون ثلاثين عائلة نصفها فى جانب من الشارع والنصف الآخر فى الجانب الآخر

وفى هذه القاعات يتناول جميع السكان غذاءهم . ويقوم بطهى الطعام نساء الثلاثين عائلة بالتناوب . وإلى جانب هذه القاعة معبد، ومكان آخر للعب الأطفال الذين تأتى أمهاتهم للطبخ فى نوباتهن

ولننظر الآن فى حكومة هذه الجزيرة . فالعائلة هى أساس المجتمع، وكل ثلاثين عائلة تختار كل عام قاضياً ، ولكل عشرة قضاة رئيس. وجميع قضاة الجزيرة الذين يبلغون ٢٠٠ يختارون أميراً ، وتكون أمارته مدة حياته مالم يتهم بمحاولة استعباد الاهالى . ولكى يمنع الامير أو غيره من محاولة قلب نظام الحكومة،يعرض كل مشروع على جميع السكان . فإن القاضى يعرضه على العائلات الثلاثين الداخلين فى اختصاصه ، ثم يتناقشون فيه ، ويرفع هو قرارهم إلى مجلس الشيوخ

والعائلة كما رأيت ليست وحدة بيتية فقط ، بل هى أيضا وحدة صناعية ، فإذا سارت قاعدة للأنتخاب ضمن النظام الديمقراطى للحكومة ضمن بذلك بقاؤها

ولكن فى هذا الحلم أشياء جديرة بالأنتقاد لم يستطع توماس مور أن يخرج فيها عن حكم بيئته . فلم يدرك مثلا أن تكاثر السكان ، مع العناية بصحة الأهالى وتوافر الغذاء لهم ، سيؤدى حتماً إلى أن يفيض السكان على طعامهم وإلى إيجاد الفاقة بين جميع السكان . وهذه غلطة يعذر فيها توماس مور ، فإن الوفيات فى عهده كانت كثيرة تكاد تعادل المواليد . فلم يكن يخطر ببال أحد أن يتخيل مثلا أعلى للمجتمع

يحدد فيه عدد السكان ، وإن كان ذكاء أفلاطون قد جعله يحسب لهذا الاحتمال ويوصي بقتل الفائضين من الأولاد

ويظهر من مسائل أخرى عالجها توماس مور أن مستوى المثل الأعلى عنده لم يكن عالياً إلى الدرجة التى يمكننا أن نتخيلها .ويظهر هذا خاصاً فى معالجته مسألة انتقال الأهالى من مكان لآخر ومسألة الحرب

ففى مسألة الانتقال يحتم على كل فرد أن يحصل على جواز من أمير الجزيرة . فإذا غاب أكثر من يوم يجب عليه أن يمارس صناعته فى المكان الذى أنتقل إليه . وإذا وجد إنسان يجول فى مكان وليس معه جواز فإنه يعاقب . فاذا عاود هذا الفعل عومل معاملة العبيد .ويبدو للقارىء من معاملة توماس مور لهذه المسألة أنه لم يعن أقل عناية بالتفكير الجدى فيها ، أو أنه أراد أن يحصل على عبيد لجزيرته،فانه وجد أن من أعمال الناس التى يحتاجون إليها ما هو قذر فى طبيعته لا يرضى بمزاولته أحد باختياره ، مثل ذبح البهائم وتنظيف الطرق وما إليها ، فخص العبيد بالقيام بهذه الأعمال وأوجد الرق بأوهى الأسباب فى نظام المجتمع ، حتى يعيش أفرادها منزهين عن كل ما فى مزاولته قذارة . ولكنه نسى شيئاً آخر ، وهو أن معاشرة العبيد تؤثر في الأسياد . وإذا ألفنا الأستبداد من السيد للعبد صار أيضاً مألوفاً من الأمير للسيد

أما الحرب فهو يجيزها على شروط . منها الدفاع عن الأوطن، واضطهاد التجار الأجانب ، ومنع الأمم من الهجرة إلى بلاد يمكن زراعة أرضها وليس من يزرعها من أهلها . ومن هذه الشروط يرى القارىء أن توماس مور كان يكتب مستضيئاً بالحوادث التى جرت فى عصره . فقد كانت أمريكا حديثة العهد بالاكتشاف ، والهجرة إليها متصلة . وكانت سفن التجارة يقبض عليها فى الموانىء ويسلب ما فيها من السلع . ولكنه يؤلف الجيش بطريقة " يوجنية " فهو يصطفى أسوأ الرجال لتجنيدهم فى الحرب ، حتى إذا قتلوا استفادت الأمة بفقدهم على نحو ما يقلع الزارع الأعشاب الضارة من حقله

ولننظر الآن فى شروط الزواج والدين . فأهل هذه الجزيرة يسمحون للعروسين بأن يرى كل منهما الآخر وهو عريان قبل الزواج .وللطلاق علتان الأولى الزنا ، والثانية التواء أحد الزوجين على الآخر بحيث لا يمكن تقويمه . ومن زنى يحكم عليه بالرق،ولا يمكن أن يتزوج رجلا كان أم امرأة

هذا هو حلم توماس مور . وليس فيه فكرة مبتكرة أو خيالا بعيداً ولكن وراء مقترحاته كلها فكرة واحدة ، وهى أن يسيطر الإنسان على الممتلكات ويتمتع بها ، لا أن يكون هو نفسه عبداً لها يقضى حياته فى جمعها واختزانها ويجهد جهده فى المحافظة عليها وحراستها

ورعايتها . يحسب بذلك أنه مالكها . والحقيقة أنها هى التى تملكه وتسترقه . وهو لذلك يلغى النقود لأنها وسيلة ادخار الممتلكات ، ويحتم على الجميع أن يشتغلوا فى الزراعة ، ولو بعض وقتهم ، حتى يشعر كل إنسان أنه منتج . ثم يحتم على كل إنسان يصنع شيئاً إن لم يزرع . ثم يعرض جميع السلع على كل الناس يأخذون منها ما يشاءون، لا يخشى ان أحـــداً سيحتجن إليــه ويدخر أكثر مما هو فى حاجة إليه

أما أوقات الفراغ ، وهى كثيرة ، فتقضى فى طلب العلوم والآداب،يحاول كل إنسان أن يرقى ذهنه بما يقرؤه أو بما يناقش فيه إخوانه

أندريا وحلمه

" يوحنا فالنتين أندريا " ألمانى ومسيحى أيضا ، وحلمه يراد به تحقيق المدنية المسيحية كما يتوهمها رجل مؤمن بهذه الديانة . ولكنه ، مثل سائر رجال الدين ، يفيق كثيراً من حلمه فتتغلب عليه لهجة الوعظ الدينى . فما يزال يعظ ويعظ حتى يسأم القارىء

وهو يبدأ حلمه بأن يروى للقارىء رحلة له في البحر حيث تتحطم سفينته على صخور جزيرة هى مسرح هذا الحلم . فقد كان بهذه الجزيرة مدينة : " كريستيانوبوليس" أو المدينة المسيحية ، فإذا أراد أن يدخل هذه المدينة امتحنه أهلها أولا فى الفضائل والأخلاق والثقافة . ولما لم يروا فيه شيئاً مناقضاً أذنوا له بالدخول

وإليك الآن وصف هذه المدينة : كانت فى هيئة مربع طول جانبه ٧٠٠ قدم ، وهى محصنة بأربعة أبراج وسور ، فهى لذلك تطل على الأركان الأربعة للعالم . والبيوت مبنية على صفين . ولكنك إذا حسبت الحكومة والمخازن فهى أربعة صفوف .وليس فيهما سوى شارع

(ولد أندريا سنة ١٥٨٦ ومات سنة ١٦٥٤)

واحد ، وسوق واحدة ، ولكنها من الطراز الأول . وفى وسط المدينة معبد مستدير قطره ١٠٠ قدم . وفى جميع البيوت ثلاثة طوابق ، ولها كلها " بلكونات " متصلة . وتجد على وجه العموم أن البيوت يماثل بعضها بعضاً . فليس هناك سرف أو قذر . والهواء النقى يجوس خلال البيوت كلها . وفى هذه المدينة يعيش أربعمائة من السكان فى هدوء الإيمان الدينى والسلام . أما سائر الجزيرة فإنها خاصة بالزراعة والمصانع

و " المدينة المسيحية " من حيث الصناعة منقسمة إلى ثلاثة أقسام واحد للصناعات الخفيفة التى لا تحتاج إلى نار ، وآخر للصناعات التى لا تحتاج إلى وقود وتبقى فيها النبران ، والثالث لتربية الحيوان والأعمال الريفية . والغرض من هذه القسمة ألا تؤذى هذه الصناعات الناس الساكنين بجوارها إذا كانت متفرقة فى أنحاء المدينة بلا ضابط . والعمال الذين يشتغلون فى هذه المصانع لا يساقون إليها سوق الأنعام، بل هم قد تعلموا قبلا وحصلوا على " معرفة صحيحة للمسائل العلمية " . ونظرية صاحب الحلم ، فى ضرورة هذه التربية العلمية للمصانع ، وهى : " أنك إذا لم تحلل المادة بالتجربة ، وإذا لم تستعض عن نقص معلوماتك بتحسين آلاتك ، فلا فائدة منك "

وهـــذه لمحة عجيبة من أنـــدريا في رؤيـــاه ، إذ يقول بفائدة العلم للصناعة وبإمكان تعليم الصانع .وكلاهمـــا غـــرض لم يتحقق

فى جميع الأقطار المتمدينة للآن ، بل من الناس من لا يؤمن بهـا .
وإليك الآن وصفه للصناعة : " أن عملهم، أو استعمال أيديهم كما يقولون هناك ، يجرى على نمط خاص . وجميع ما يصنع يحمل إلى مخزن عمومى . ويأتى الصانع فيأخذ من هذا كل ما يحتاج اليه لعمله فى الأسبوع القادم ، وذلك لأن المدينة فى الحقيقة مصنع واحد متنوع الصناعات . وإذا كان بالمخزن كمية مدخرة كبيرة من المصنوعات ، فإن الصناع يؤذن لهم بالإنطلاق من قيود العمل واستعمال أذهانهم فيما يشاؤون . ولا يحمل النقود أحد من الناس وليس للنقود أية فائدة عندهم . ومع ذلك فللجمهورية خزانتها . والسكان من هذا الإعتبار لهم ميزة المساواة ، ليس أحداً منهم أوفر مالا من غيره ، وإنما يمتازون بقوة أذهانهم ويتفاضلون بأخلاقهم وصلاحهم . وعدد الساعات التى يشتغلون فيها قليلة ، ومع ذلك فهم يتممون شيئا كبيراً من الأعمال لأنه من العار على أحد أن يأخذ من الراحة أكثر مما يؤذن له "

وهناك واجبات وطنية يؤديها السكان إلى جانب صناعاتهم كالحفر والحصاد وتعبيد الطرق والبناء وصرف أقذار المدينة إلى مجاريهـا

أما التجارة الخارجية فليست فى يد أفراد يشتغلون لحسابهم ، بل هى فى يد هيئة تعينها المدينة . وليس الغرض من هذه التجارة زيادة الثروة والربح ، بل مقايضة سائر الأقطار على ما عندهم من السلع

التى لا تصنع فى " المدينة المسيحية

وأساس هذا النظام عند أندريا هو العائلة المسيحية . فكل شاب يبلغ الرابعة والعشرين ، وكل فتاة تبلغ الثمانية عشرة ، يتزوجان ويؤلفان هما وأولادهما عائلة جديدة

وليس هناك ما يتكلفه الزوجان ، حتى أثاث البيت الجديد تقدمه الحكومة بلا ثمن . وهذا الأثاث بسيط ، يمكن الزوجة أن تنظفه بأقل عناء ، ولذلك ليس فى المدينة المسيحية خدم للبيوت . فالنساء متعلمات ، والزوج يساعد زوجته فى عمل البيت ما عدا الخياطة والغسل . ثم هناك مطبخ عمومى يزود الزوجة بما تحتاج إليه من الطعام إذا لم تكن قد طبخت لنفسها

أما الأطفال فيبقون فى رعاية الأم إلى السادسة من عمرهم ، وبعد ذلك يدخلون المدارس فيبقون فى عنايتها إلى سن الشباب . وفى هذه المدارس أفضل المعلمين . ويمكن الآباء أن يروا أبناءهم كلما شاءوا . وفى غير أوقات الدراسة يعمل التلاميذ أعمالا يدوية ويتميزون بالفنون والعلوم ، كل يختار ما يميل إليه طبعه . أما أوقات الفراغ فتقضى فى رياضة الجسم . وفى مدارس " المدينة المسيحية " شيئان جديران باعتبارنا . أولهما أن للمدرسة دستوراً ، فهى أشبه شىء بجمهورية صغيرة . والثانى أن المعلمين ينتقون من خيرة السكان ،

حتى إن أعلى الوظائف فى الدولة ليست مقفلة دونهم . وإليك الآن ما يقوله عن تعليم التاريخ الطبيعى :

" يرى التاريخ الطبيعى هنا مرسوما بالتفصيل على الجدران بأعظم مقدار من المهارة . فهيئة السماء ، ومناظر الأرض فى مناطق مختلفة ، وشعوب الإنسان المختلفة ، وأمثلة الحيوان ، وهيئة الأحياء ، وصنوف الأحجار والجواهر ، كلها مرسومة ومسماة . يتعلم منها الطلبة طبيعتها وأوصافها .. أو ليس من الحق معرفة أشياء هذه الارض وأسهل فى الإيضاح إذا كانت هناك أمثلة توضح إلى جانب دليل يساعد الذاكرة ؟. وذلك لأن العلم يجوز إلى الذهن عن سبيل العين بأيسر مما يجوز إليه عن سبيل الأذن "

وقد قلنا أن المؤلف ألمانى ، فهو لذلك لا يترك صغيرة ولا كبيرة فى هذه المدارس حتى يحصيها ، يصف معامل الرياضة ومعامل الطبيعة والتشريح والصيدلة بدقة ، كأنه يهيىء ترسيما لمشروع سيتحقق . وهو على حبه الألمانى للعلوم لا يهمل أمر الفنون . فهو يقول : " أمام معمل الصيدلة دكان وسيعة للفن التصويرى ، وهو فن يلذ لأهل المدينة العناية به . لأن المدينة ، فضلا عن أنها مزينة بصور ورسوم تمثل أشكال الأرض المختلفة ، تستعمل الرسوم فى هذه الدكان لتعليم الشباب وتسهيل هذا التعليم لهم . ثم أن صور العظماء وتماثيلهم ترى فى كل مكان ، وفيها كلها ما يبعث فى الشباب عاطفة

ومعبد المدينة هو بالطبع أهم بناياتها ، ويحوى من بدائع الفن ما يحويه غيره . ولكن أندريا كان كما قلنا رجل دين ، وقد زار جنيف ووقع تحت تأثير "كالفن" فهو لذلك يجعل العبادة فى المعبد إجبارية .والاجتماعات العمومية تعقد فى هذا المعبد ، كما أن "الكوميديات" الدينية تمثل فيها

والآن وقد ذكرنا شيئاً عن الصناعة والتعليم والعائلة فلننقل شيئاً عن الحكومة . ففى المدينة مجلس مؤلف من ٢٤ عضواً . والهيئة التنفيذية لهذا المجلس مؤلفة من ثلاثة أشخاص ، هم الوزير والقاضى ومدير التعليم . وأولهم يمثل ضمير الأمة ، والثانى الفهم ، والثالث الحقيقة . وإليك ما يقوله الآن عن عقاب المجرمين : " إن قضاة المدينة المسيحية يتبعون هذه العادة ، وهو أنهم يعاقبون بأقصى العقوبات تللك الجرائم التى تقع من إنسان نحو الله . ثم يعاقبون بأقل قسوة تلك الجرائم التى تقع من أحد نحو الناس . وأخف ما يعاقب عليه أحد هو تلك الجرائم التى تقع بالأملاك . وأهل المدينة يكرهون إراقة الدماء . وهم لذلك لا يستبيحون لأنفسهم عقوبة الإعدام . لأن كل إنسان يمكنه أن يقتل ، ولكن لا يقدر على الإصلاح إلا خير الناس" ،

أضغاث أحلام

بيكون " و " كامبانيلا " كلاهما مشهور بحلمه . وأولهما انجليزى وثانيهما إيطالى ، ولكنك إذا تفحصت أحلامهما عن المثل الأعلى للهيئة الإجتماعية ألفيت هذه الأحلام أضغاثاً مجموعة من تلك الرؤى الرائعة التى ألهمها أفلاطون ومور من قبلهما ، مع زيادات طفيفة تدلنا على روح الزمن الذى وضع فيه هذان المؤلفان كتابيهما

فكامبانيلا يحلم بما يسميه " مدينة الشمس " وراء خط الاستواء، وهى لا تختلف عن جمهورية أفلاطون إلا من حيث شيوعية النساء وشيوعية الأملاك . وإنما نجد فى كامبانيلا بعض عبارات تنبىء بالقرنين الثامن عشر والتاسع عشر . فهو يقول مثلا أن عند سكان مدينة الشمس زوارق تسير على الماء ، لا بقوة الريح ، ولا بقوة المجاديف ، وإنما " بأختراع عجيب " ثم أن أحد سكان المدينة يحدثه فيقول :

" آه لو أنك تسمع ما يقوله المنجمون عندنا عن الأزمة القادمة. فسيكون في القرن الواحد منها من التاريخ أكثر مما فى أربعة آلاف

(ولد كامبانيلا سنة ١٥٦٨ ومات سنة ١٦٢٦) .

سنة ماضية . أجل ستكون فيها مخترعات الطباعة العجيبة ، والمدافع والمغناطيس .." ولما كانت المخترعات كثيرة فى "مدينة الشمس" وسائرة فى طريق النجاح فإن أهل المدينة ليسوا فى حاجة إلى استعمال الرقيق ثم : هم أغنياء لا يحتاجون إلى شىء وفقراء لأنهم لا يملكون شيئاً . وعلى ذلك فهم ليسوا عبيداً للظروف ، وإنما هم أنفسهم يستخدمون هذه الظروف

ففى هذا الكلام إيماء إلى المستقبل الذى كان يحس به كامبانيلا. فقد بدأ ضمير الإنسان يستيقظ فى زمنه ويتساءل : هل ما قررته الآلهة القديمة من الرق جدير بأن يقره الإنسان الجديد ؟ . وهل لا تقوم المخترعات يوما ما بعمل الإنسان بحيث تزول عنه لعنة آدم أو توشك؟. ثم يجيب كامبانيلا بالإيجاب ، ويلغى الرق ، ويقصر العمل الذى يحتاج إليه الناس إلى أربع ساعات فقط . وذلك لأنهم كلهم يشتغلون ، ولأن المخترعات توفر لهم وقتهم

وأحلامنا على وجه العموم تبع لمزاجنا ومألوفنا . وعلى ذلك نقول أنه لما كان مور وأندريا متزوجين ، لكل منهما عائلة ، كانت العائلة أساساً من أسس الهيئة الإجتماعية التى تخيلها كل منهما . ثم لما كان أفلاطون وكامبانيلا أعز بين ، كانت شيوعية النساء أحد أركان الهيئة الإجتماعية التى رآها كل منهما فى رؤياه . الإنسان يتخيل وفق طبعه ومألوفه ، ولكن يجب أن نقول أن أفلاطون نفسه ،مع أنه كان أعـزبا ،

لم يكن يؤمن كل الإيمان بشيوعية النساء . وإنما هو قصر هذه الشيوعية على الطبقتين السائدتين . أما طبقة المزارعين والصناع ، وهم بالطبع جمهور المدينة أو الأمة ، فإنه لم يقبل شيوعية النساء بينهم . مما يدل على أنه كان يدرك أن الزواج الذى يؤسس العائلة ضرورة لكثرة الأمة . وهو فى حرمانه رجال طبقة الأوصياء ، وطبقة المقاتلة ، من الزواج وتأسيس العائلة ، إنما ينقاد إلى تلك الفكرة التى تقول باستحالة خدمة غرضين . وهى الفكرة التى أوجدت الرهبان . وهى التى تجعل رجل الفن يمتنع أحياناً كثيرة لمصلحة فنه عن الزواج . فكما أن الراهب المسيحى لا يتزوج إرصاداً لنفسه على خدمة الدين ، ووقفاً لمواهبه على العبادة ، كذلك كان يرغب أفلاطون فى أن يرى الوصى أعزب يقف كل جهوده على مصلحة الأمة لا على زوجته وأولاده . فالقاعدة عند أفلاطون هى الزواج ، أما الاستنشناء فهو الإباحة المقيدة

* * *

ولننظر الآن فى بيكون وأضغاث أحلامه . فقد رأينا أن كامبانيلا لم يأت بطائل . وكذلك الحال فى بيكون ، بل خيال بيكون مقصوص الجناح إذا قيس إلى خيال كامبانيلا . ثم فى جناحه ريش مستعار أكثر مما فى جناح كامبانيلا . وكثير من هذا الريش المستعار قد رأيناه على أصله فى خيال أندريا وفى رؤيا أفلاطون . فلا حاجة إلى التكرار

وأهم ما فى رؤيا بيكون هو " بيت سليمان " وهو مؤسس أشبه شئ بالكليات . الغاية منه: " معرفة علة الحركة فى الأشياء وأسرارها ، وتوسيع سلطة الإنسان حتى لا يعجز عن عمل أى شيء ممكن. وفى هذا المؤسس معامل أو مختبرات محفورة فى جوانب التلال ، ومراصد يبلغ ارتفاع أبراجها نصف ميل ، وفيها برك من الماء الملح والماء العذب يبدو من أقوال بيكون أنه يريد منها أن تكون مختبراً لتربية الأسماك وسائر الأحياء المائية . ثم فيها الآلات تدير الأشياء . ثم هناك أيضاً مصح لتجربة الأدوية ، وقاعات كبيرة لعرض التجارب الطبيعية ، ومراكز زراعية كبيرة لعمل التجارب فى التطعيم .ثم المعامل الصيدلية والصناعية . ومعامل أخري لعمل الإختبارات في الصوت والضوء والطيوب والطعوم . فهذه كلها يقول بيكون انها في " بيت سليمان " ويجمعها ركاماً مشوشة بلا تنسيق ، أشبه شئ بالمذكرات منها بالرؤيا المرتبة . ومن هذه الكلية ، أو " بيت سليمان " يخرج اثنا عشر عالما إلي البلاد الأجنبية للسياحة وجلب الكتب الغريبة وكتابة التقارير عن المخترعات والأشياء العجيبة التي يرونها في سياحاتهم . وهذه الكلية هي أهم شئ في مدينة بيكون التي يسميها " أتلنتيس الجـــــــديدة "وسائر ما في هذه المدينة لا يختلف عما رأيناه في أفلاطـــون وأندريا .

(ولد بيكون سنة ١٥٦١ ومات سنة ١٦٢٦)

وهذه الكليه كما وصفها بيكون هي الحلم الذي لا يزال يحلم به للآن علماء الكليات . وقد أوشك أن يتحقق بعضه مثلا في " مؤسسة روكفيلر " في الولايات المتحده . وهو يدلنا علي هموم بيكون وأنها كانت هموم رجل عالم جدير بأن يكون أحد أركان النهضة الأوربية . فهو القائل بالعقل بدل النقل . يريد أن يبني الحقائق علي التجربة والاختبار ، وأن يعبيء قوي الانسان إلي ترقية العلوم والمعارف . ويحشد لهذه الترقيه جميع الكفايات التي في الأمة . ثم هو لا يترك فرعا من فروع المعارف الإنسانية ، صناعة كان أو زراعة أو طبا أو غير ذلك ، إلا ويهيئ له وسائل التجربة والاختبار الذي عليه تبني أصول هذا العلم أو الفن . ومع ما في رؤياه من التشوش والخلط ، فإنه قد رسم لنا توسيماً يوشك أن يكون كاملا عن كلية يقصد منها تقدم العلوم وترقية المعارف

عصر الصناعة وأحلامه

يتسم القرنان الثامن عشر والتاسع عشر بظهور المخترعات الصناعية ووفرتها ، ولو قيست هذه المخترعات في هذه المدة القصيرة الي مخترعات الإنسان الآلية منذ خمسين ألف سنة لأربت عليها . إن لم يكن في الفائدة ، ففي تعدد أصنافها وتنوع أعمالها . فهذه الكثرة وحدها كانت من الدواعي القوية إلي أن يفكر الإنسان في مستقبل الآلات ، وأن يرجو منها أن تقوم مقام العامل نفسه وتوفر عليه راحته . ثم كان من ظهور الآلات وإقبال الناس علي الصناعة أن انتقلت الثروات الضخمة من البيوت القديمة إلي أفراد محدثين . فحدث من هذا الإنتقال تزعزع في المجتمع ، لعدم انطباق الجديد علي القديم ، وأنتهي الحال الي الثورة الفرنسية . وليست الثورات في الحقيقة إلا محاولة عنيفة لإصلاح القديم الذي يتنافر مع الجديد ، فإن لم ينجح الإصلاح فإن الثائر يعمد الي الهدم . وكل هذه الأحوال تربة صالحة لأن يغرس فيها رجل المثل الأعلي ما يتوهمه من هيئة اجتماعية وما يحلم به من إصلاح . وقد سبق أن قلنا أن الإنسان ،إزاء الوسط الذي يعيش فيه ويشعر

بفساده أو ثقل أنظمته ، أحد ثلاثة : فهو اما أن يفر منه ويتحول عنه إلي وسط آخر يوافقه ، وإما أن يدافعه ويحتمي منه ، وإما أن يهاجمه متعمداً إبداله

ونحن إذا نظرنا إلي رجال القرن الثامن عشر ألفيناهم من الصنف الأول، يبغون الهروب. فقد تعاظمهم الفساد فآثروا تركه علي معالجته. ففيهم جميعهم روح " روبنسون كروزو " يرضي بحال البداوة الساذجة في جزيره قصية ويعيش منفرداً له كفافه من العيش ، يؤثر هذه الحالة علي حضارة المدن وما فيها من ترف وتكلف وعجيج . فه" جان جاك روسو " مثلا يؤلف الكتب عن فساد الحضارة وما في نشر العلوم والآداب من الأذي للناس . ويصيح بالناس أن عودوا إلي الطبيعة . ثم هناك " شاتوبريان " لا يري الجمال والجلال إلا في ذلك المتوحش النبيل الذي يعيش علي الفطرة في بادية أمريكا ، ثم يفحص نفسه فإذا به هو نفسه ذلك " المتوحش النبيل " الذي يهوي الهروب من الحضاره .ثم هناك " برناردين سان بيير " قد اشمأزت نفسه من الحضارة وتكاليفها فلم يجد مسرحاً يمثل عليه خياله من السعادة إلا في أقاصي جنوب أفريقيا حيث الطبيعة لم تزل بكراً وحيث سعادة الحب ووساوس الغرام تدب في الجسم مفاجئة فلا يدريها الشاب وتخطئها الفتاة لأنهما من بداوة العيش بحيث يغمرهما الجهل والسذاجة . وكلاهما أساس السعادة في رأي هذا الفار من مكافحة الحضارة

والنزوع إلي الطبيعة وسذاجتها ، وإلي البداوة وحريتها ، هو ردة في نفس كل إنسان ،ونحن أكثر ما نكون شعوراً بقوة هذه الردة عندما تكثر تكاليف الحضارة . ولو كان كل رجال المثل العليا من طينة هؤلاء الرهبان الذين يفرون من مواجهة الحقائق ، يتوهم فردوس لا يمكن تحقيقه ، لما تعنينا في سرد أحلامهم . فإنما نحن نعني هنا بأولئك المكافحين المهاجمين الذين يرسمون لنا بناء حضارة جديدة كاملة أو شبه كاملة غير تلك التي يعيشون فيها

وإذا عدت " طوبيات " الفلاسفة أو أحلامهم التى تخيلوا فيها من النظم ما هو أرقى مما لديهم ، لكان ثلثا هذه " الطوبيات " ينسبان إلى القرن التاسع عشر ، والثلث الباقى إلى سائر القرون . وإنما ذلك لكثرة مخترعات هذا القرن وانتشار الصناعة فيه ، واختلاف التوازن فى هيئته الاجتماعية اختلالا فادحا واضحا ، وظهور طبقة من الناس تستبد بالعمال وتستأثر بالربح العظيم ولا ترضخ لهم إلا باليسير الذى يقوم بكفافهم أو بأقل منه

فقد كانت الصناعة قبل ظهور الآلات فى أيدى صناع يشتغلون بأيديهم.فالحذاء يشترى آلاته بأقل الأثمان ، وينتحى ناحية المدينة يفتح فيها دكانا. فيصنع الأحذية ويبيعها بنفسه. يفعل ذلك كله وهو راض عن نفسه وعن حكومته وعن الحضارة التى هيأت له هذا النظام . ولكن ظهرت بعد ذلك الآلات ، فسارت تصنع آلاف الأحذية فى وقت قصير

وغمرت السوق ببضائعها حتى لا تكاد تتسع لما يصنعه ذلك الحذاء البسيط . فهى تدفعه إلى أن يكون عاملا فى ذلك المصنع الكبير الذى يصنع أشياءه بالآلاف . وقل مثل ذلك فى سائر الصناعات . فإن الصناع الذين يصنعون بضائعهم بأيديهم قد استحالوا عمالا ، لا رأس مال لهم ، يطردهم المصنع عند تكدس بضائعه ، وينزل أجورهم إلى أحط قيمة تضمنها مزاحمة العمال بعضهم لبعض . وينتج عن ذلك كله أنه يبقى العمال فى فقر مدقع ، وأن يثرى أصحاب المصانع إثراء فاحشا ، وأن يدعو هذا التفاوت بين الحظين إلى تذمر العمال وإلى ظهور الحركات الإشتراكية . وليس غريبا أن تظهر لفظة Socialism أى الإشتراكية حوالى سنة ١٨٢٥ . وليس النظام الأشتراكى سوى " طوبى " يتمنى العمال تحقيقها فى مقتبل الأيام ، فهى الآن أمنيتهم وحلمهم . ولكن يبدو من تصفح الأحوال السياسية فى الأمم الغربية أنهم صائرون إلى تحقيق هذه الطوبى أو ما يشبهها . ومعظم الطوبويين ، أو رجال المثل العليا ، فى القرن التاسع عشرهم ، أو أكثرهم ، لهذا السبب من الإشتراكيين. فهؤلاء الإشتراكيون يرون تقدم الآلات والمقادير العظيمة التى تنتجها من البضائع فيتساءلون : لم لا تملك الأمة هذه الآلات وتصنع بها ما يكفى الناس من اللباس ؟ . ولم لا تستعمل هذه الآلات فى الزراعة ، فيتوافر للفلاح وقته ليقضى منه ما يشاء فى تربية نفسه والترفيه عنها ؟ ولم يربح الممولون كل هذه الأموال التى يغلها عليهم

الحديد والنار ؟ .أو ليس من العدل أن تكون المخترعات شائعة يستغلها كل أفراد الأمة فى شخص الحكومة

وأول رؤيا نصفها من رؤى القرن التاسع عشر هى رؤيا " شارل فورييه " وهو من زعماء الإشتراكية فى فرنسا . وقد رأى فورييه فيما يرى اليقظان أن جماعة يبلغ عددها نحو ١٦٠٠ نفس تعيش معاً ، ويقوم أعضاؤها بجميع حاجاتهم . والأمة التى منها هذه الجماعة مقسمة جماعات على هذا النمط ، كل منها تتكفل بحاجاتها دون الإلتجاء إلى جماعة أخرى والأنسان فى رأى فورييه شخصية مثلثة : " فهو صناعى يبغى المؤالفة بينه وبين الوسط الذى يعيش فيه بالصناعة . وهو اجتماعى يبغى المؤالفة بينه وبين الجماعة التى ينتسب إليها . وهو ذهنى يحتاج إلى كشف النواميس التى تعمل لنظام هذا الكون " وهو لهذه الشخصية المثلثة يضع جماعته المكونة من ١٦٠٠ نفس فى بقعة مختلفة المناظر والنواحى ، فيها الجبل والنهر والغابة والسهل والمدينة

وصناعة الأهالى الأصلية هى الزراعة ، ولكن الأهالى مع ذلك يمارسون جميع الفنون والصناعات الأخرى . إذ أن كل جماعة مستقلة عن الأخرى

وفى وسط البقعة التى تقيم فيها الجماعة بناء:"وهو قصر كامل

(ولد فورييه سنة ١٧٧٢ وهلك سنة ١٨٣٧)

بحاجات المجتمعين ، له ثلاثة أجنحة أحدها صناعى وآخر اجتماعى وآخر ذهنى . ففى الأول المصانع وقاعاتها ، وفى الأخير المكتبة والمجموعات العلمية والمتاحف وقاعات الفن ونحو ذلك . أما الجناح الإجتماعى ففى الوسط ، وهو يحتوى قاعات الطعام والأستقبال والسمر، وفى أقصى القصر معبد المؤالفة الحسية ، وهو خاص بالرقص والموسيقى والشعر والرسم ونحو ذلك . وفى أقصى القصر من الناحية الأخرى معبد الإتحاد الذى يحتفل فيه بالشعائر اللائقة باتحاد الإنسان بالكون . وهنا برج ومرصد به تلغراف للإتصال بسائر الجماعات "

وهذا البناء هو بالطبع المدينة كلها ، يعيش أهلها معاً ، لهم مطبخ واحد . ومنذ الصغر يتعلم الأطفال كيفية الطبخ . وهم يأكلون معاً ، وإن كان من الممكن أن يتناول كل إنسان طعامه بمفرده على عزلة . ولكل واحد من الجماعة مقدار معلوم من الطعام والغذاء والمسكن والملهى،يتساوى فيه مع سائر أفراد الجماعة بغض النظر عن العمل الذى يزاوله . ثم فوق ذلك له أن يحصل على امتيازات أخرى يخوله إياها ما له من الأسهم فى شركة هذه الجماعة . فهنا تمييز بين العامل المجد والعامل الخامل . وهنا أيضا ترخيص بالامتلاك الفردى إلى درجة ما . فالجماعة مساهمون ، يعيشون عيشة مشتركة يتساوون فيها كلهم ، ثم يمتاز منهم الحاصل على أسهم أكثر من غيره . ولكن هذا الامتياز قليل

الأثر ، لأن الربح فى النهاية ، بعد الانفاق على هذه العيشة ، يكون صغيراً لا يؤبه به فهذا ، كما يرى القارىء ، شبه توفيق بين مبدأى الاشتراكية والانفرادية

والصناعات تمارس على نظام واسع اقتصاداً فى النفقة . كل عامل يختص بجزء من العمل حتى ينجز الكثير منه فى القليل من الوقت . والجماعة تتجر مجتمعة كأنها هيئة واحدة ، فتبيع للجماعات الأخرى ما هى فى غنى عنه ، وتوزع الأرباح على أعضائها بنسبة مالهم من الأسهم فيها على نحو ما تفعل الجمعيات التعاونية الآن

والمرأة فى هذا النظام حرة ، تشغيل كما يشتغل الرجال . ويرى فوريبه أن الزواج لا يوافق هذه الحرية . ففى البناء مكان لتربية الأطفال الرضع . وللجماعة جيش لا يعبأ للحرب ، وإنما يسير لمكافحة الطبيعة : لشق الأنهار وزرع الغابات وبناء الجسور وتجفيف الأرض النازة ونحو ذلك . ويرى فوريبه فى ذلك منصرفا لنشاط الشباب يقوم مقام الحرب

ويختلف "روبرت أوين" عن بعض من ذكرناهم من حيث أنه لم يستسلم للخيال كل الاستسلام،وأنه قصد إلى إيجاد هيئة اجتماعية تتيسر إقامتها .فقد عاش هو نفسه بين عمال،وأدار المصانع،وعرف تلك العلاقة بين الآلة والإنسان وإمكان جعلها وسيلة للاصلاح أو للافساد.

(ولد أوين سنة ١٧٧١ ومات سنة ١٨٥٨)

ولم يكتف بالكتابة والشرح بل عمد إلى العمل ، فأسس جملة مصانع أجراها وفق آرائه بالاشتراك مع " بنتام " المشرع الشهير . وأُنتهت تجاربة العملية هذه بالاخفاق

ولكن أوين ، وكذلك المفكر الفرنسي " سان سيمون " كلاهما ، دعا ، أو بالأحرى نحا ، نحو الأفكار الاشتراكية التى نعرفها الآن . وكان حاصل دعوة سان سيمون أن تمزج التجارة ، أو المعاملة بين السيد والعامل ، بالأخلاق . فلا يعمد الإنسان إلى أن يربح كل ما يمكن ربحه بل يقنع بربح معتدل ، ولا يصنع إلا ما فيه المصلحة العامة . وهو بين هذا وذلك يرى نفسه مضطراً إلى أن يرى مساوىء الامتلاك الفردى للعقارات المغلة ، فينحو على الرغم منه إلى التفكير الاشتراكى . وأما روبرت أوين ، وهو واضع لفظة " الاشتراكية " المستعملة الآن ، فتدلنا أعماله على الأسس التى قام عليها التفكير الاشتراكى فى القرن التاسع عشر

كان أوين رجلا غنياً له مصنع فى " منشستر " به نحو خمسمائة عامل يغزلون القطن . وما زال دائباً فى عمله حتى اُتسعت أعماله وراج غزله وزادت ثروته . ولكن الأثراء لم يكن همه الأكبر لأنه كان يهتم بأحوال العمال والترفيه عنهم . فإنه عمد عندما أثرى إلى تأسيس مصنع كبير فى نيولانارك بانجلترا كان به ٣٠٠٠ عامل . وكان بناء المصنع مستوفياً كافة شروط الصحة والجمال .ومع أن استخدام

الصبيان كان جائزا فى ذلك الوقت ، وكانت أجورهم قليلة ، فإنه رفض استخدامهم . وكان يخفض ساعات العمل إلى أقل مقدار ممكن ويزيد الأجور إلى أعلى مقدار ، وكان يمنح أجوراً وقت العطلة الإجبارية التى تنشأ من الكساد . وكان فى أوقات فراغه يؤلف فى إصلاح المجتمع . ومن أسماء هذه المؤلفات يمكن للقارىء أن يقف على شيء من أفكاره . فمنها مقالات عن " تكون الاخلاق الإنسانية " و " رأى جديد فى المجتمع " الخ . الخ . وكانت كتاباته هذه سبباً للفت الأنظار إلى الأحوال السيئة التى يعيش فيها العمال ، حيث بعثت البرلمان البريطانى إلى سن تشريع خاص بحماية الأطفال من العمل فى المصانع

وذاعت شهرة أوين ، فكان " بنتام " المشرع الإنجليزى الشهير من أصدقاءه ، وله أسهم فى مصانعه . وزاره الغرندوق نقولا الذى صار بعد ذلك قيصراً على روسيا . وكان والد الملكة فيكتوريا صديقاً له ويكثر من زياراته . وبلغت شهرته الولايات المتحدة ، فدعاه بعضهم إلى إنشاء مصنع يشبه مصنع نيولانارك . فسافر إليها وأسس جملة مصانع ، ولكن تراكم الأعمال عليه لم يتح له النجاح فيها

وعاد أوين إلى انجلترا فأرصد نفسه للتفكير الاشتراكى ، وحارب الامتلاك الفردى ، ونسب إليه جميع الشرور الفاشية فى زمنه . ورأى المسئولون أن الجمهور أخذ يحبه ، والصحف تبسط صدورها لتكتب عنه وله، فعمدوا إلى مركز حساس وهو الدين ، كما يفعل الرجعيون عندنا

مع المجددين ، فما زالوا به يتهمونه بالكفر والالحاد حتى صد الناس عنه

أراد أوين أن يحصر الربح فى العامل الذى ينتج السلعة ، فلا يتجاوزه إلى التاجر أو الوسيط أو صاحب المصنع . ورأى أن أمثل الطرق لذلك ، ولتحقيق الاشتراكية ، أن يعمد العمال إلى تأسيس المصانع ، لكل منهم مقدار من الأسهم . وأن يفتحوا الحوانيت لبيع مصنوعاتهم بأنفسهم ، ويشترون المادة الخام للمصنع ثم يبيعونها مصنوعة للجمهور : " فيتفادون تلك الأرباح التى يحصل عليها صاحب المصنع أو الوسيط من عرق جبينهم " . وقد عملت هذه الفكرة على رفع شأن العامل ، وكانت بداية الجمعيات التعاونية فى العالم . ومن أغرب ما فكر فيه أوين إيجاد بنكنوت ترقم عليه القيمة بساعات العمل وليس بالنقود المتداولة . فقد رأى أن قيمة النقود تختلف ، فتزيد أو تنقص تبعا لغلاء القروش.فالجنيه الذى نشترى به الآن مائة رغيف قد لا نشترى به فى الغد سوى ٩٥ رغيفا وقد نشترى به ١٠٥ أرغفة . فأخترع بنكنوتاً يبين زمن العمل بالساعات . والساعة لا تتغير فى أى وقت . وقد كتب على هذا البنكنوت ، الذى نشره بأسمه ، هذه العبارة : سلم حامله بضائع بدلا من قيمة عشرين ساعة بأمر روبرت أوين

* * *

ولننتقل الآن إلى خيالى مشهـــور هو"جيمس بكنجهام"عـــاش أكثر

(ولد بكنجهام سنة ١٧٨٦ ومات سنة ١٨٥٥)

أيامه فى الشرق . وكان يحرر عدة صحف إنجليزية فى الهند ، وكان مع ذلك جوابة أفاق رحالة لا يستقر . فزار عدة أقطار وهو ينظر ويتبصر، ثم وضع كتاباً عن " الشرور الآهلية والعلاجية العملية وترسيم لبلدة أنموذجية "،وظهر هذا الكتاب سنة الثورات التى شملت أوربا كلها تقريبا وهى سنة ١٨٤٨ . وفى هذا ما يدلنا على البواعث التى تبعث هذه الأخيلة فى عقول المفكرين

وما هى هذه البلدة الأنموذجية ؟ . هى بلدة تدعى " فكتوريا " يؤسسها أفراد مشتركون على طريقة الشركة المساهمة المحدودة المسئولية . وتحتوى هذه البلدة على جميع التحسينات الجديدة : " من حيث الصنع والترسيم وصرف المجارى والتهوية والبناء والماء والضوء وسائر المتمعات " . ومساحتها ميل مربع . وعدد سكانها لا يزيد على عشرة آلاف نفس . وعلى طرف المدينة تؤسس المصانع ، ومصنوعاتها ملك للشركة لا للافراد الذين يصنعونها . وحول المدينة ضيعة تبلغ عشرة آلاف فدان هى ملك للشركة أيضا ، كما أن البيوت وسائر العقارات لا يملكها الأفراد وإنما تملكها الشركة . وهذه الشركة تستغل كل هذه الأشياء وتوزع الأرباح على الأفراد بنسبة ما لهم من أسهم فيها،ولا يجوز الإشتراك فيها لأحد ما لم يكتتب على الأقل بعشرين سهماً ، ويثبت حسن نيته للمدينة ، ويكتب على نفسه عهداً يشرط

على نفسه فيه الإمتناع عن تناول الخمـــــــور أو العقاقير أو التبغ

ويكون بالمدينة مغاسل ومطابخ ومطاعم عمومية ، ومكان عمومى أيضاً لتربية الأطفال الرضع . ويكون التعالج بالمجان،كما يجرى فى الجيش، ولن يكون بالمدينة قضاة ومحاكم ، وإنما تكون شرائع مسنونة يتعهد الاهالى بالسير عليها . فإذا حدث اختلاف أختار المتخالفان حكماً ليفصل فى خلافهم . والأهالى يتعهدون ، فى جملة ما يتعهدون به ، عدم الشكوى إلى المحاكم والرضا بما يحكم به الحكم المختار . وهذه التعهدات ضرورية لأن مدينة فكتوريا يراد إقامتها فى وسط أى دولة ، فلابد لذلك من هذه التعهدات حتى تعيش مستقلة عما حولها فى إدارتها وقضائها

والمشروع إنجليزى أينما نظرت إليه . فهو عملى ، يمكن إقامته فى أى مكان ، فلا يجبر الناس عليه ولا هو فى حاجة إلى أن تجربه أمة بأسرها . إذ يكفى لنجاح المشروع أن يقوم به عشرة آلاف نفس . ويقول يكنجهام أنه إذا تأسست مثل هذه الشركة ، ونجحت ، سارت سائر البلاد على طريقتها . وهو فى لبه ، كما يرى القارىء ، شركة تعاون كبيرة تبيع الغلات بنفسها ثم تقسم الأرباح على مساهميها

من أحلام الاشتراكية

أحلام القون التاسع عشر كله ، وما يليه من ربع القرن العشرين ، هى كلها أحلام الآلات والعمال . وكلها تتجه بالطبع وجهة اشتراكية شأن جميع الأحلام الماضية ، ولكنها تمتاز منها بالعناية بالعمال وبجعل الآلات أساساً للهيئة الاجتماعية . وهاتان الميزتان ، كلتاهما ، لم يكن افلاطون يعرفهما . فهو كما يذكر القارىء حذف من ذهنه مسألة الصناع والعمال ، ولم يبال بهم إلا أقل المبالاة . أما الآلات في زمنه فلم تكن لها من الخطورة والأثر فى المجتمع ما يدعو إلى التفكير فى شأنها . ولكن كل هذه الأحوال قد تغيرت فى القرن التاسع عشر ، إذ هو يشترك وقرننا فى أنه عصر العمال وعصر الآلات معا

ومن أصحاب الأحلام المعدودين فى القرن التاسع عشر " اتيين كابيه" الذى ولد سنة الثورة الفرنسية : ١٧٨٨ ، وتوفي عند بداية امبراطورية نابليون الثالث : سنة ١٨٥٦ . فرأى في صباه أحد مردة التاريخ ، نابليون الكبير ، وعبر القرن التاسع عشر بثوراته الكبرى سنة ١٨٤٨ وبمخترعاته العديدة التى هى فى الحقيقة أبعد أثراً من

الشورات فى النظم الإجتماعية.وميدان الحلم " ايكاريه " وهى إقليم مقسم على طريقة الثورة الفرنسية الى أقسام اعشارية ، فيه مائة مديرية تستوى كلها فى المساحة وعدد السكان . وكل هذه المديريات ينقسم الى عشرة مراكز متساوية أيضاً لا يراعى كابيه فى ذلك اختلاف السهل من الجبل ، أو الوادى الجدب من الوادى الخصب ، فإنما هو يقسم مملكته كأنها رسم على الورق . ينزع هذه النزعة بقوة الثورة الفرنسية التى أسست الطريقة المترية . وفى وسط " ايكاريه " تقوم مدينة " ايكاره " عاصمتها . وهى أشبه شىء بباريس ، لها نهرها أيضاً كما لباريس نهر السين . والمدينة مستديرة ، يشقها نهرها نصفين متساويين ، ويقوم على الشطين جداران مشيدان من الحجر لمنع انهيارهما . وقد كرى النهر حتى بعد قعره وحتى صارت بواخر الاقيانوسات تمخر فيه وتنقل البضائع الى إيكاره ومنها . وبها خمسون شارعاً توازى النهر وخمسون أخرى تقطعه . (وقد خانته الطريقة العشرية هنا ، لأن المدينة كما سبق فذكرنا مستديرة فكيف تتفق استدارتها ونظام هذه الشوارع ؟.) والمدينة مقسمة الى ٦٠ حياً كل منها يحتوى على مدرسة ومستشفى ومعبد وحوانيت . والمدينة مبنية عمارات،بكل عمارة ١٥ منزلا تحيط ببستان عمومى

والقرى فى اقليم ايكاريه تشبه المدينة من حيث التخطيط ، والمؤلف مهموم بالعناية بالصحة وبالرفاهية فى الشارع ، فمماشى

الناس الى جانبى الشوارع مظللة بالزجاج، كذلك المحطات (أليست هى الآن كذلك؟) ، أما الاصطبلات والمجازر والمستشفيات ، فتقع خارج القرية أو المدينة . وتقوم المصانع والمخازن على النهر أو إلى السكك الحديدية لتسهيل النقل

والآن لننظر فى النظام السائد الذى يجرى عليه السكان ..

كان اتيين كابيه مشبعاً بروح الزمن الذى عاش فيه ، وكان نابليون يشمخ فيه كالمارد ، ولذلك بدأ كابيه حلمه بأن تخيل " إيكار " أميراً مستبداً يملى على الناس نظام حكومته فلا يخالفه أحد . وخير ما يوضح هذا النظام هو وصف حالة أحد السكان

يبدأ الايكارى يومه فى الساعة السادسة ، فيتناول فطوره فى المطعم أو فى المصنع . وقد قررت ألوان الفطور لجنة من العلماء،نظرت فى قرارها إلى صحة المفطرين . وكأنى بك تشك فى هذا الطعام ، وهل يساغ على الرغم من قرار العلماء ، وقد شك قبلك كابيه وأذن للسكان بأن يفطروا كما شاؤا وأينما شاؤا،وإذا أفطر الايكارى قصد إلى عمله ،فيشتغل فى الصيف ٧ ساعات وفى الشتاء ستاً . (والمؤلف من أهل البلاد الباردة يرتاح إلى العمل فى الصيف على عكس ما هو حاصل عندنا) . وجميع أهالى ايكاريه يعملون هذا العدد من الساعات بلا إمتياز لأحد على آخر

والحكومة هى صاحبة المصانع ، وهى التى تنظم أوقات العمل ، وهى التى تملك الخيول والمركبات التى تنقل البضائع . فهى اشتراكية لا غش فيها ، ومن هنا كانت " رحلة إلى إيكاريه " من الكتب التى تداولها العمال كثيراً منذ طبعته الأولى سنة ١٨٤٥ . وكان هذا الكتاب ذا أثر فى تشبع العمال فى أوربا بالفكر الاشتراكى

وعندما يفرغ الايكارى من عمله بخلع ملابسه ، تلك الملابس التى قررتها " لجنة الملابس " على نحو ما تقرر إدارة الجيش ملابس الجنود . والواقع أن الإيكاريين جنود قد عبئوا للصناعة ، يجرى عليهم نظام الجيش فى جميع شؤونهم

وقبل أن يولد الايكارى تتلقى أمه دروساً فى واجبات الأمومة . فإذا بلغ الخامسة تناولته يد الحكومة بالتربية طبقا لبرنامج يتفق فيه جميع شباب الايكاريين الى سنة الثامنة عشر للذكور والسابعة عشرة للأناث . وعندئذ يسير كل شاب أو شابة فى دراسة خاصة توافق الصناعة التى سيتخذها فيما بعد . وهذه الصناعات محدودة معينة ترأسها كلها لجنة تحصى عدد الصناع فى جميع المصانع كل عام ، وتحصى مقدار البضائع المخزونة ، ثم تعين حاجتها الى عدد الصناع المطلوبين فى كل صناعة،وتأخذ من متخرجى المدارس من تحتاج إليهم من الفتيان والفتيات . والرجل يحال على المعاش إذا بلغ الخامسة والستين والمرأة إذا بلغت الخمسين

ولا يمكن الايكارى أن يتزوج قبل بلوغه العشرين ، أما الفتاة فيمكنها ذلك عند بلوغها الثامنة عشرة . أما الحكومة فكانت فى نشأتها استبدادية ، لأن كابيه تخيل " ايكار " شخصاً له إدارة نابليون وسلطانه ويعمل للاصلاح ، ولكن بعد موته صارت نيابية لكل مديرية مجلسها،وللأقليم كله مجلس منتخب من هذه المجالس وله هيئته التنفيذية التى تدير البلاد . والحكومة تصدر الصحف ، ولكن هذه الصحف مقصورة على ايراد الأخبار دون ارتياء الآراء،لكى لا تكون منها ذريعة لتثبيت قدم الحكومة

سنة ٢٠٠٠

كان " أوين " و " كابيه " كلاهما اشتراكى ، يتخيل على يقظة ، ويحلم بتدبير ، ويقصد الى التطبيق والعمل . وقد أنشأ كل منهما مستعمرة لتجربة نظرياتهمـــا وتحقيق خيالهمـــا فى انجلترا وأمريكا. وأخفق كلاهما

ولكن " ادوارد بلامى " لم يكن مثلهمـا . فقد كانا كلاهما مصلحين يدرسان العمران وأحوال العمال والصناعات ، أما بلامى فكان أديباً أميركياً أعتنق الإشتراكية فوضع قصته " نظرة الى الوراء " يصف فيها العالم كما يتخيله سنة ٢٠٠٠ وينتقد أحوالنا الراهنة فى ضوء تلك السنة البعيدة . وكل ذلك بلهجة أديب قد حذق فن القصص ، ولذلك لا تزال قصته ذائعة بين الجمهور الإنجليزى والأمريكى وخاصة فى أوساط العمال

وهـــو يبدأ قصته بأن أحـــداً نومه تنويماً مغناطيسياً فلم يستيقظ إلا فى سنة ٢٠٠٠. وكـــانت له قصة غرام مع آنسة سنـــــة ١٨٨٧،

(ولد بلامى سنة ١٨٥٠ ومات سنة ١٨٩٨)

وهو يصل غرامه القديم بحفيدتها سنة ٢٠٠٠ ، مما لا شأن لنا فى تفصيله لأن غايتنا هو وصف ما وضعه لنا من الترسيمات للإصلاح

ولم يصف بلامى شيئاً عظيماً الا من حيث الحجم ، أما من حيث المتانة فإن بناءه أرك بناء وأكثره تداعياً . فإذا أنت قرأت القصة سما بك أدبها خيال راق ، ورفعك قصدها العالى الى أسمى العواطف

ولكنك إذا وقفت وتأملت، شعرت كأن بلامى يصف لك مدينة كبيرة من ورق . وأن خيال أفلاطون ، على ما به من سذاجة ، أمتن دعائم وأوثق نظاماً من هذا الحلم الذى يراه بلامى فى ختام القرن العشرين . ولكنك مع ذلك تشعر بتلك الدوافع الشريفة التى بعثت بلامى على أن يتخيل هذا الخيال ، فهو يرغب فى أن يرى هيئة اجتماعية يقعد فيها الفرد الى المائدة لكى ينعم بالطعام الفاخر، ولا يرى إنسانا واقفاً قريباً منه يحسده على نعيمه ويتضور جوعاً . ويرغب بلامى فى أن يرى التربية عامة والتعليم شاملا الجميع ، لأن للجاهل منظراً كريهاً ينعكس أثره على جميع أفراد الأمة الذين يستوقرون من جهله ما لا قبل لهم بحمله . ويرغب فى أن يحمل على عاتقه شيئاً من ذلك العبء الذى تخص به طائفة الزبالين والكناسين وغيرهم ، لأن مثل هذه الأعمال أشق وأقذر من أن تحتملها طائفة وحدها . ويرغب أيضاً فى أن يستوى الناس فى فرص الإثراء بحيث لا تكون الثروات من الصدف التى يصيبها بعض الناس ويخطئها البعض الآخر . وهو فوق

كل ذلك أديب يرغب فى ألا يمتهن الحب ، وألا تقف اعتبارات الجزار أو البقال أو الخياط حجر عثرة فى سبيل الحب المثمر بين فتى وفتاة يحجمان عن الزواج لأن الفتى لا يستطيع شراء كذا أو كذا مما تحتاج إليه الزوجة . ويرغب فى حمل الناس على الحياة الساذجة ، وكفهم عن التكلف والتصنع ، فيجب أن تصارح الفتاة حبيبها بأنها تحبه ، ويجب أن تلبس ما تشاء من اللباس البسيط ، وأن تفضى إلي الناس بآرائها بدون أن تتقيد بعرف جائر أو حياء متكلف

وكل هذه الرغبات حسنة في ذاتها ، ولكن بلامى يخطىء عندما يريد تحقيقها فى خياله، وهنا يجب أن نقف هنيهة لكى نتأمل فى الفرق بين خيال أفلاطون وبين أخيلة هؤلاء الحالمين من أبناء القرن التاسع عشر

فإن أفلاطون لم يعن قليلا أو كثيراً بالعمال ، بل تركهم على ما كانوا عليه . ولكن جميع فلاسفة القرن الماضى لم يفكروا فى إصلاح للمجتمع إلا وكانت مسألة العمال هى المقدمة على كل المسائل . وعبرة ذلك هى أن عدد العمال قد كثر فى هذا القرن وصاروا هم جمهرة الأمة وكثرتها، وهذا بخلاف الهيئات الاجتماعية القديمة . وعلة ذلك تفشى الآلات ، وتمركز الثروات فى أيد قليلة ، وانهزام المالك الصغير أمام المالك الكبير . وهذا هو شأن بلامى ، فإنه يبدأ " طوباه " أو مثله الأعلى للهيئة الإجتماعية بحل مسألة العمل . فهو يقول : ان أهالى الولايات المتحدة كانوا فى القرن التاسع عشر قد تدربوا

علي تنظيم أعمالهم بواسطة شركات كبرى ، فما أن يختم هذا القرن حتى اندمجت هذه الشركات فى ادارة واحدة وصارت قسما من الحكومة وصار عمال هذه الشركات جيشاً كبيراً يتألف من شباب الأمة . وهم يشتغلون كالجيش، تسيطر عليه الحكومة، ويجري عليه نظامها ، ويتناول منها أجوره . والعمل فى هذا الجيش إلزامى ، كما هو فى الجيوش العسكرية الحاضرة ، إذا تخرج الشاب من الكلية أنتظم فيه ثلاث سنوات يؤدى فيها الأعمال الشاقة الوضيعة .

فإذا تخرج هذه المدة تقدم للتخصيص فى إحدى الصناعات أو الفنون التى تعلن الحكومة عن حاجتها الى عمال لها . فيبقى فى تعلم هذه الصناعة التى ينتقيها . وبعد ذلك يصير جندياً فى جيش العمال العظيم الذى تديره الحكومة ، وكل عامل مهما كان عمله يتناول أجراً يستوى فيه هو وغيره من العمال قدره ٨٠٠ جنيه فى العام. لا يمتاز فى ذلك عامل لنشاطه عن عامل آخر لكسله ، وكل من لا يؤدى واجبه يعاقب . ولما كانت الأعمال تختلف من حيث الصعوبة والسهولة ، فإن الحكومة تحترز من إقبال الناس على الأعمال السهلة ، وتجنبهم الصعوبة بتقصير مدة العامل فى هذه وإطالتها فى تلك . والأجر مع ذلك لا يختلف فى كلا العملين . ويجوز للعامل أن يستقيل ويحصل على معاش ٤٠٠ جنيه فى العـــام إذا بلـغ الثالثة والثلاثين أو أن يبقى فى عملـــه الى الخامسة والاربعين ويحصـــل عندئذ علـــى الاستقالة

بمعـــاش كامـــــل قـــدره ٨٠٠ جنيه

ولكن في هذا الجيش ثغرة ، فإنه يلزم بجميع الشباب بالعمل فيه ما عدا أولئك الذين ينتمون الى حرفة المؤلف. فإن التأليف والاختراع خارجان عن هذا النظام . ويجوز للعالم أو المكتشف أو الآديب أن يمارس صناعته حراً كما هو الحال الآن ويكتسب من الجمهور كما يشاء ولابد أن بلامي ، وهو مؤلف قصصي ، قدعرف من اسرار صناعته ما يدعوه الى عدم الثقة بالحكومة . لأن الحكومة بطبيعة وجودها تميل إلى الجمود وبقاء الحال الحاضرة ، والمخترع والمكتشف والأديب كلهم تقتضى صناعتهم شيئاً من الخروج على المألوف . وهم لذلك لا يجدون في الحكومه بيئة صالحه نزكو فيها أذهانهم

ولنرجع الآن إلي جيش العمال فنقول أن جميع الأعمال من إنتاج واستنفاد في حكومة سنة ٢٠٠٠ قد قسمت إلي عشر مصالح تضم إلي حظيرتها طائفة من الصناعات المتجانسة . ولكل صناعة قلم خاص ، به السجلات الخاصة بها ، وما يتوافر من الأجور فيها يئول إلي الالات والأبنيه التي تحتاج إليها هذه الصناعة.وهذا القلم هو الذي يقرر أثمان السلع التي يصنعها ، ولكنه لا يمكنه أن يستبد لأن قانون الدولة يحظر الزيادة إلا بنسبة معينة لما أنفق علي السلعة

ويرأس جيش العمال رئيس الولايات المتحدة الذي ينتخبه انتخابا مباشرا جميع السكان ، بعد استثناء جيش العمال ، وذلك لمنع استبداد

الجيش بالأهالي

ولكن يبقي فرض آخر وهو : هل يرضي هذا الجيش علي كثرته بأن يعين له رئيس وليس له صوت في تعيينه ، وهل يعمل هذا الرئيس شيئا لزيادة رفاهية العمال وهو منتخب بهذه الكيفية ؟

هناك شك في أنه يمكن إدارة جيش كامل ليقوم بجميع الأعمال في أمة كبيره تبلغ نحو مليون نفس . لأن هذه الإشتراكية الحكومية بعيدة عن أن تتحقق في جميع الصناعات . ولسنا في ذلك ننكر أن بعض الصناعات تنجح عن سبيل الإشتراكية الحكومية ، بل الإشتراكية البيروقراطية ، أكثر مما تنجح في يد الأفراد ، كما نري في السكك الحديدية المصرية . ولكن هناك من الصناعات ما لا يمكن أن تنجح إلا إذا عولج علي مقاييس صغيرة ، وفي إدارات محدودة المساحة . ولكل بقعة شخصية تظهر في صناعاتها ، ولكل بيئة طابعها علي الصانع الذي يمارس إحدي صناعاتها . فالإشتراكية الحكومية لا تنجح في كل صناعة ، ولهذا نشأ بين الإشتراكيين الرأي القائل بـ " الإشتراكية البلدية " التي تقوم البلديات فيها بما يقوم به الأفراد ، مستقلة في ذلك عن الحكرمة

ولنلق نظرة الآن علي الحياة الإجتماعية كما تخيلها بلامي . فنحن نجد في " طوباه " طائفة كبيرة جدا من المتقاعدين الذين يعيشون عيشة الترف ، ويجوبون آفاق العالم ، بفضل المعاش الكبير الذي يتناولونه ،

أو يمارسون إحدي الصناعات التي يهونها أو إحدي الرياضيات .وهنا يعني بلامي عناية كبيرة بالرياضة ، إذ يقول : " إذا كان الخبز أول حاجات الحياة ، فإن الرياضة هي الحاجة الثانية "

ونجد طائفة كبيرة أخري هي " جيش العمال " الذي يقضي فيه الفرد ٢٤ عاما وهو مرغم علي العمل إرغاما إذا تهاون فيه عوقب . وهذا في اعتقادنا ركن متداع من بناء الهيئة الإجتماعية عند بلامي ، فإن المدة أطول من أن يتحملها إنسان بالرضا

ولكل عائلة مسكنها . ولكنها في غني عن الطبخ ، لأن لكل طائفة ، أو جزء من حي من المدينة ، مطعم كبير فيه غرفة خاصة بكل عائلة . وفي المنزل أداة التليفون التي لا تستعمل للتخاطب فقط ، بل لسماع الأغاني . لأن لها بوقا يضخم الصوت ، فتقعد العائلة في ساعة معينة ونستمع لخطب الوعاظ والساسة وأناشيد المغنيين . وقد لمح بلامي شيئاً من الراديو الذي يستعمل الآن في كل مكان في أوربا عندما خطر بباله هذا الخاطر

ثلاثة من الإنجليز

كلنا يعرف ذلك الشاعر الألماني الجسم الفرنسي الذهن " هنريخ هينه " كيف حكي عن نفسه أنه بدأ بالتحمس للديمقواطية ، وأندفع للدفاع عنها ، حتى إذا رأى أن الديمقراطية هى حكم الدهماء أو العامة عاد فأنكف عن دفاعه وتقلص فى نفسه وأعتاض من حماسته السابقة فتوراً أو خوفا

ولقد كان القرن الماضى عصر ظهور الديمقراطيات ، وهو أيضاً عصر فشل هذه الديمقراطية . فقد كان الظن أولا أنه إذا صار الحكم للأمة أنتفى الاستبداد وزال الظلم ، ولكن ظهر من تجارب هذا القرن أن كثرة الأمة إذا أستوفت تبعات الحكم لم تضطلع دائماً بها . لهذا جنح أبناء القرن العشرين إلى التفكير فى إيجاد " آلهة " للحكم ، ولن تنزل هذه الآلهة من السماء وإنما هى تستولد من الانسان . على نحو ما حلم افلاطون بإيجاد طبقة من الحكام تقف نفسها على النظر فى مصالح المدينة دون أن تحتاج إلى المبالاة بمصالحها ودون أن يكون لأفرادها عائلات أو عقارات تشغلهم

وكما كان القرن الماضى عصر ظهور الجمهوريات ، كان أيضاً عصر ظهور نظرية التطور التى أخذت منذ منتصفه تملك على العقول مسالك التفكير وتصبغ النظريات والأحلام والترسيمات العمرانية بصبغتها . وهذه النظرية تتلخص من الوجهة العمرانية فى أنه يمكن أن يرتقى الإنسان حتى يصير إلهاً ، أو سبرماناً ، كما أرتقى الانسان فى الماضى من حيوانات أدنى منه . وهذه النظرية ، من حيث عدد الداعين إليها ، واشراب النفوس بها ، إنجليزية . ولذلك ليس ما يدعو إلى أن نستغرب أن ثلاثة من كبار مفكرى الإنجليز قد حلموا بإيجاد انتخاب صناعى يؤدى إلى وجود طبقة راقية من الناس ، رلا يكون رقيها مع ذلك رقياً فى أحوال الوسط الذى تعيش فيه هذه الطبقة بل يكون فى أجسامها وأذهانها

هكذا حلم " شو " . ولكننا سنضطر إلى تركه لأنه لم يؤلف طوبى كاملة وإنما ألقى جزافا عدة مقترحات . وهكذا حلم "ولز" و "هدسون" وكلاهما مشبع الذهن بنظرية التطور . فقد بدأ ولز حياته الأدبية بتأليف كتاب عن تشريح الأدب ، وهو الآن يؤلف عن الآلهة تخرج من جسم الانسان نقية طاهرة من أدران الحيوان . أما هدسون فقد استأنف حياة جديدة للأدب الإنجليزى بأن فتح له باب الطبيعة على مصراعيه . فهو أديب من عشيرة الأدباء الجديدة التى ستكثر فى المستقبل ويتناول أدبها درس العلوم كأنها فن من فنون الأدب ، بل كأنها الأدب كله . فهو

يكتب لك عن القط والأسد والغراب والجبال والأنهار والإنسان وسائر ذلك الملكوت العظيم الذى حرمنا منه أدباء العرب بتأليف الكلام استحساناً للجرس اللفظى ، ولبريق الكنايات والاستعارات

ولكن قبل أن نصف " طوبى " كل من ولز وهدسون يجب أن نلقى نظرة سريعة على طوبى أخرى من الطوبيات التى تولدت من القرن التاسع عشر ، نعنى بها طوبى " موريس " لأنها أشبه بالقرن التاسع عشر منها بالقرن العشرين . وقد كان موريس اشتراكياً تمذهب بهذا المذهب لبواعث فنية.فإنه وجد أن النظام الاقتصادى الحاضر ، بما فيه من مزاحمة شديدة ، يبعث الصانع على أن يصنع أرذل المصنوعات وأسخفها لكي يروجها فى السوق . وأن صاحب العمل يستغل عماله إلى أقصى حد؛ فيعملون ساعات طويلة ويتناولون أجوراً قليلة ويعيشون لذلك أضنك عيشة وأزراها . وكان هو نفسه سرى الذوق عصامى النزعة، يلبس القميص الحريرى ويصنع التزاويق المذهبة والحروف الملمعة لأغلفة الكتب ، فكانت نزعته إلى الاشتراكية نزعة الرجل البار الذى زكت نفسه وسخت حتى يريد أن يرى فى مدينته ما يراه فى بيته من جمال ولمعة وسرور . ويحب أن يرى فى سائر البشر ما يراه فى نفسه من ثقافة وصحة . يلبسون ما يلبسه من حرير ، ويعيشون فى رفاهية بل فى ترف . ومثل هذه النزعة تهيء الذهن لترسيم الرؤى الجميلة لولا ما يشوب عقل الاشتراكي من القناعة بالاشتراكية والرضا بآلامها

ويبدأ وليم موريس حلمه بأن يصف طوباه بأنها جاءت عقب ثورات تطهرت فيها مما كان يلوث القرن التاسع عشر . فهو يرى ناساً يجمعون النقود ، كما تجمع التحف والعاديات ، لا للتعامل . ويرى النساء فى صحة وعافية يخالفن فيها نساء القرن الماضى اللواتى كانت تنطبع عليهن آثار البطالة أو الجهد من ترهل أو نحول . والمعيشة ساذجة،لأن الناس قد استغنوا عن جميع العروض التى كانوا يحتاجون إليها سابقاً للمنافسة والمباهاة لا للحاجة الحقة

وهم لذلك يعملون بلا كدح ، لأن حاجاتهم قد قلت حتى صار القليل من العمل يكفى لسدادها . وقد عادوا مع ميلهم إلى اتقان العمل إلى الصناعات اليدوية . وليس معنى هذا أنهم استغنوا عن الآلات ، ولكنهم عرفوا أن القماش المنسوج باليد على مهل خير من ذلك المنسوج بالآلة ، إذ هو أمتن،وعليه من شخصية صانعه طابع خاص. وقل مثل ذلك فى عدد كبير آخر من الصناعات . ثم أن الصانع الذى يعمل سلعة ما بيديه ، يشرع فيها من البداية ، ويتم أجزاءها قطعة بعد قطعة حتى تتم ، يرى فى عمله من اللذة ما ترى الأم فى تربية ابنها أو ما يرى المؤلف فى تأليف كتاب . أي أنه يشعر فى نفسه بلذة الخالق للشيء الجديد . بخلاف ما نرى فى مصانعنا الكبرى الآن حيث يختص عامل بجزء من العمل لا يتعداه ، يصنعه مكرهاً .

(ولد وليم موريس سنة ١٨٣٤ ومات سنة ١٨٦٩)

ولا يقبل عليه إلا بمقدار ما يجذبه الأجر

ثم أن السذاجة التى اقتضت الرجوع الى الصناعات البدوية ، والى تقليل الحاجات ، قد اقتضت أيضاً الغاء المدن الكبيرة والاستغناء عن المركبات والقطرات العظيمة . لأن كل بلدة تستنفذ مما تنتج كل ما تحتاج إليه . ولم يبق من أطلال لندن العظيمة سوى بناء البرلمان الذى صار الآن مخزناً لروث البهائم . والعامل قليل العمل ، ولكنه يشتغل ، بوحى الفن . فهو لا يصنع السلع للتجارة ولكنه يتذوق ويجود فيها تجويد صاحب الفن الملهم . ونقول بعبارة أخرى أن " توماس مور " تخيل مثله الأعلى فى رجال كلهم عالم أو باحث أو طالب علم . أما "وليم موريس" فإنه تخيلهم رجال فن يقضون أكثر وقتهم فى تجميل مدنهم والتذوق فى تشييد منازلهم وصنع تماثيلهم وتحفهم

وليس فى هذه الهيئة الاجتماعية حكومة سياسية أو إدارية من أى نوع كانت ، وليس هناك قضاء . ولكن ليس معنى ذلك أنه ليس بين هؤلاء الناس من لا يغضب أو يحقد ، ومن لا ينتهى به الغضب والحقد إلى ارتكاب الجرائم . ففيهم من يفعل ذلك ، ولكنه لا يعاقب بل يترك لضميره وللعار الذى يلصق به أمام الرأى العام . والجرائم قليلة ، لأن الخير وفير ، فانجلترا كلها ليس فيها سوى نحو خمسة ملايين نفس بدلا من ثلاثين مليونا يسكنونها الآن . وإذا قل السكان ، وكثرت الخيرات، انتفى شيء كثير من أسباب النزاع بين الناس . وعندئذ لا

يحتاجون إلى الاستباق الى المصانع الكبرى والتزاحم على الأعمال كما يجرى بيننا الآن

ويرى القارىء من هذه العجالة أن " موريس " يسرف فى حسن الظن بالناس ، وأن الشيوعية فيه تغلب على الاشتراكية . فهو لا يبالى بإيجاد قواعد للنظام ، ولا يفكر فى الحكومة . وعنده أن البلدة الصغيرة قادرة على إدارة جميع شؤونها بنفسها . وإذا نحن فرضنا أن ذلك ممكن ما دامت البلدة صغيرة لا يزيد سكانها عن ألف أو ألفى نفس ، فهل يمكن أن يدوم هذا العدد ؟ كأن ليس بين النساء امرأة بلهاء تنسل كالأرانب بدون أن ترعى مصلحة الجماعة ، أو كأن ليس بين البشر أدواء وافدة تحتاج إلى نظام يكاد يشبه فى قسوته الأحكام العرفية ، أو كأن ليس هناك نظام للتعليم أوفى من نظام آخر ويحتاج فى تنفيذه إلى ما يشبه حكومة صغيرة ؟

ولكن " موريس " رجل فن ، يريد قبل كل شيء أن يرى الجمال والمتانة فى المساكن والمصنوعات . وقد رأى من انتشار الآلات والمصانع الكبرى فى القرن التاسع عشر ما أفسد عليه هذين الغرضين . فهو يكره القرن التاسع عشر بنزعته القوية إلى الاستفراد والمزاحمة ، ويبغى ما يقابل هذين المبدأين ، فيميل بطبعه إلى الشيوعية ، ويفرط فى ميله إليها ، واستحسانه لها بمقدار افراط الناس فى ذلك القرن فى اكبار شأن الاستفراد

ثم لننظر الآن إلى " هدسون " . ونحن فى إنتقالنا من موريس إلى هدسون نقفز قفزة كبيرة . فإن " موريس " من الارض ، عادى التفكير ، قد تكون اشتراكية روسيا الحاضرة بعد تحوير طفيف شبيهة بحلمه . ولابد أن كتابه يعد الآن فيها من الأناجيل المقدسة . أما هدسون فإنه فى السماء ، يتخطى بنا آلاف السنين . فالقرن التاسع عشر أقرب من أن يلتفت إليه موريس ، والاشتراكية أتفه من أن تشغله ، فهو ينظر إلى تطور الإنسان من الحيوان فى الماضى ويود أن يستولد من هذا الانسان آلهة جديدة

والوحدة الاجتماعية لهذه الرؤيا هى بيت قروى كبير مؤلف من عشرات الغرف . ولهذا البيت تاريخه القديم وآدابه وفنونه ، كأنه دولة صغيرة . وله أيضاً شرائعه التى يتبعها سكانه ويسهر على تنفيذها " أبو البيت " الأكبر وهو الذى يحكم بعزل أحد الأفراد مثلا لجريمة ما . وحول هذا البيت مزرعته ، وله كلابه وخيوله التى تطورت فصارت تتفاهم مع الانسان وتؤدى غرضه بأيسر إشارة . وهم يعيشون فى هذا البيت كل منهم فى غرفته ، ولكنهم لا يعرفون الزواج . وهم يقضون الشهوة الجنسية قضاء عقيما غير مثمر ، لأن وظيفة الأثمار خاصة بامرأة واحدة هى " يعسوب البيت " على نحوه ما نرى فى كوارة النحل حيث تحتكر الملكة ، أو يعسوب النحل ، وظيفة التناسل فيكون أبناء

(ولد هدسون سنة ١٨٦٠ ومات سنة ١٩٢٤)

الجيل الجديد لها دون غيرها .فإذا قرر أفراد البيت انتقاء "الأم" عمدوا الى إحدى فتياتهم فيضعونها فى مكتبة خاصة ، حيث تعرف من الأشياء والأسرار مالا يجوز أن يقف عليه غيرها من السكان . ونحن نفهم بذلك أن السكان يختارونها لصفات وسمات بارزة فيها لا ترى فى غيرها ، وأن الأسرار التى تعرفها فى المكتبة خاصة بقداسة وظيفة التناسل ، وأنها يجب أن تنتقى أفضل الرجال ليكونوا آلهة للجيل القادم . وأن الكتب التى تقرؤها تخبرها عن صفات الفضل والنبل التى يجب أن تتوافر فى الرجل حتى يحوز شرف الأبوة لأحد أفراد الجيل الآتى . وليس فى هذه الكوارة الأدمية من له حرمة هذه الأم ، فهى تعيش بين اكرام الجميع ، لامرد لكلمتها . وهى تقضى حياتها فى التناسل،فتنجب للبيت نحو ٣٠ أو ٤٠ طفلا فى حياتها ، حتى إذا ماتت أختير غيرها لتأدية عملها . وهكذا يسير البيت ، أو هذه العائلة الكبيرة ، جيلا بعد جيل،فتحذف منه الصفات السيئة وتنتقى وتخلد الصفات الحسنة ، لأن " الأم " قد درست موضوع التناسل والوراثة ، وعرفت أن واجبها أن ترفع بيتها درجة فى سلم التطور . فكل من به نقص فى الخيال أو الذكاء أو الصحة أو الاخلاق لا يكون له حظ الأبوة ، وان كان له من النساء الأخريات ما يشبع فيهن شهوة جسدية عقيمة . ونفهم من هذا النظام أن سكان البيت قد لا يزيدون عن ٨٠ أو ١٠٠ شخص،ولكنهم دويلة صغيرة فيها من يختص بالعلوم

أو الزراعة أو الفنون أو الصناعات الأخرى

وليس فى هذا النظام ما يخالف الطبيعة البشرية ، كما يتوهم القارىء لأول وهلة ، فإن " العائلة " لا تزال موجودة بوجود الأم التى هى صلة القرابة بين جميع السكان . ثم أن الأبناء لا يعرفون لهم أباً معيناً ، فالمنفعة الشخصية والأثرة الأبوية منتفية،وبذلك ينتفى التنازع بين أفراد البيت . ثم أن الشهوة الجنسية غير مقيدة ، لأن لجميع الأفراد أن يتمتعوا بها بشرط ألا تعقب نسلا . وقد عرف الانسان نوعا من الزواج يدعى " الضمد " كان العرب يمارسونه فى آسيا ، حيث يتزوج ثلاثة أو اربعة من الرجال (يكونون فى العادة أخوة) امرأة واحدة وينسب الأولاد للأخ الأكبر

* * *

ولنلق الآن نظرة عاجلة على طوبى " ولز " وهى أحدث الطوبيات إذ نشرت سنة ١٩٠٦ . ولسنا ننسى طوبي أخرى أحدث منها عهداً وضعها "برنارد شو " فى قالب درامة ولكنها لهذا السبب تستعصى على التلخيص . و " ولز " كاتب طوبوى كثير الأخيلة والأحلام ، لا يخلو كتاب له من مثل أعلى ينشده ، ثم يتخيله ، ثم يأخذ فى تفصيله وبسط ما جل فيه وما دق كأنه يصف شيئاً محسوساً

وهو يتخيل طوباه فى عالم مثل عالمنا ، ولكنه ليس منقسماً أمماً وطوائف تتنازع للتوسع والاستعمار. إذ هو أمة واحدة لهـــــا حضارة

(ولد ولز سنة ١٨٦٦ ومات سنة ١٩٤٦)

واحدة تدير سككها الحديدية ويريدها إدارة عامة وتجرى عليها شرائع عامة . ولهذا العالم تاريخ يشبه تاريخ الأرض ، ولكنه أُنتهى بثورة أو ثورات أحدثت هذا النظام الجديد ومحت الحدود بين الأقطار القديمة . والسكان يستعملون الآلات إلى أُقصى حد ، وهم فى فنونهم لا ينظرون للوراء ، فلست تجد فى المبانى طرازاً ينحو قديماً أو يومىء إلى حضارة بائدة .والأرض وسائر مصادر الثورة ملك شائع للجميع تستغله الهيئات المحلية دون الأفراد . ومن أهم ما يتسم به سكان هذا العالم أن لكل فرد سجلا يحتوى على اسمه ورقمه وطابع أصبعه وأسماء الأماكن التى تنقل فيها . والغرض من هذا السجل درس أحوال الفرد وكفاياته فى الحياة وفى الوراثة لأنها تستعمل بعد موته

وينقسم الناس فى هذا العالم أربع طبقات . وهم الطبقة العاملة الذين يتولون الإدارة والحكم . والطبقة الشعرية وتتألف من رجال الذهن الذين يحترفون التفكير والتخيل،ثم طبقة البلداء الذين يقومون بالأعمال الوضيعة . والرابعة هى طبقة المنحطين من مجرمين ومدمنين ونحو ذلك. وهؤلاء يحذفون إلى جزيرة خاصة منفردة حيث يعيشون ويمارسون رذائلهم كما تشتهى نفوسهم بعيدين عن سائر الناس . وهم إنما يبقون ويتناسلون بمقدار ما فيهم من خير ، وإلا فمصيرهم إلى الفناء .وذلك لأن الرذيلة إذا مورست قتلت صاحبها ، فهى بالنسبة للجماعة داء ودواء معاً لأنها تنفى عنها صاحبها

ولكن فوق هذه الطبقات الأربع طائفة أخرى تقوم بالتعليم والإصلاح وتحرس نظام العالم، تشبه طبقة أفلاطون المؤلفة من الحكماء . وهذه الطائفة تدعى طائفة السامراء . والسامرائى يختار بعد اختبار طويل تفحص فيه قواه العقلية والجسمية من شباب العالم الذى جاز الخامسة والعشرين . فيفرض عليه نظام في اللباس والطعام والرياضة . وفى كل عام يخرج السامرائى إلى الغابة ، لا يحمل كتاباً أو سلاحاً أو قلماً أو نقوداً ، وعليه أن يقتات من الغابة ويتأمل فى خلوتها ، وقد حرم جميع المتع الدنيوية ، ثم يعود بعد ذلك إلى الدنيا وقد أكتسب من الطبيعة متانة فى الخلق وعافية فى الجسم ونظرة أوسع لمصالح العالم وهؤلاء السامراء يسمع لكلامهم ، وتنفذ إرادتهم ، لا تخالفهم طبقة من الطبقات الأربع . وهم أشبه شىء فى نظامهم بطائفة اليسوعيين . فكما أن هؤلاء قد ضحوا بملاذ الدنيا ، وأرتضوا النسك خدمة للمسيحية فى عالمنا ، فكذلك يدخل السامرائى فى طائفة مضحياً بكل شىء فى العالم يتفرغ لإصلاحه ودرس أمثل الوجوه التى ينبغى أن تسير عليها إدارته سواء أكانت فى جماعة أو عائلة

وليس فى هذا المقترح شىء غريب ، لأنه إذا كان في الدين من القوة ما يحث طائفة من الناس على أن تقبل النسك والإعتكاف فى دير قصى ، تتعبد فيه ولا تفكر فى ولد يخلفها ميراث أو تعقبه له ،

فليس من الكثير على أبناء القرن العشرين أن تتألف بينهم " رهبانية " يكون غـرضـها خـدمـة الإنسان بدلا من خـدمـة الآلـهـة

الحقيقة بنت الوهم

إذا كانت الحقيقة هى بنت البحث ، فإن البحث هو أيضاً ابن الوهم. نتوهم أولا ، ثم نبحث ،ثم نتحقق . نحلم ببناء البيت ، ونتوهمه فى مخيلتنا قائماً مشيداً . ثم نبحث عن مواده وأسبابه ، ثم نبنيه طبق توهمنا الأول . وما من ثورة أو انقلاب أو إصلاح توافرت أسبابها لأمة ما إلا وكانت وهماً يتوهمه قبلا أحد مفكريها

والقضية لا تنعكس . فإن كثيراً من أوهام العلماء وأحلامهم ذهبت هباء ، اما لأنها كانت أضغاثاً وركاما غير منسقة،واما لأنها جاءت قبل أوانها . ولكننا لو عرضنا طائفة من الإنقلابات الحديثة لرأينا فيها أثر المثل العليا التى رآها الفلاسفة والمفكرون . وقد يظن القارىء ، لفرط ما هو لاصق بالحقائق ، أن أثر هذه الأحلام ضعيف فى مجتمعنا،والحقيقة أنه كبير جداً ، بل هو أكبر فى بعض الحالات مما كان يجب أن يكون . فلو أن الشيوعيين فى روسيا مثلا لم يستسلموا كل الاستسلام لمن حلموا بالشيوعية،مثل " باكونين " و " كروبتكين " وغيرهما لعدلوا بنظامهم الذى أعقب الثورة عن كثير من نقائصه

ثم ليس هناك شك في أن " عصبة الأمم " ليست إلا تحقيقاً لحلم المسيحية في إيجادالسلام في العالم . وقد حلم نيتشه بـ " حكومة الولايات المتحدة الأوربية " . ورأى ولز في طوباه حكومة عالمية يخضع لها العالم كله

وأعتبر مثلا تلك الثورة الأمريكية التي أنتهت بتأسيس الولايات المتحدة ، أو تلك الثورة الفرنسية التي أنتهت بمحو الملوكية من فرنسا ، تجد أنهما إنما جاءتا عقب أحلام الفلاسفة في فرنسا وأمريكا عن الحرية والمساواة وسائر هذه الأفكار التي لا يزال الناس للآن يجدون في سبيل تحقيقها

بل أعتبر التعليم العام والدعوة إليه ، فقد دعا إليه كثير من الفلاسفة، وهو لا يزال للآن على الرغم من انتشار المدارس خيالا أكثر مما هو حقيقة وهنا، في مسألة التعليم هذه ، يجب أن نقف لكي نرى شيئاً من فعل الخيال في النفس وسيطرته على العقل . فإن جميع من تخيلوا المثل العليا لم ينسوا أن يفكروا في التعليم وتعميمه . كما أن الذين تشوفوا إلى عهد المساواة ورجوا تحقيقه لم ينسوا أن يذكروا أن المساواة في فرصة التعليم هي أرقى ضروب المساراة وأعدلها . وكانت نتيجة ذلك أنه لم ينتصف القرن التاسع عشر حتى كانت جميع الأمم الأوربية قد رسخ في أذهان أبنائها وجوب تعميم التعليم . ولكن فرقاً [illegible]نيال الفيلسوف ، ينضجه رأسه المثقف ، وبين الحقيقة تتناولها أيدي

المتوسطين من الناس . فإن التعليم الآن على عمومته فى أوربا ، ومجانيته ، لا يزال صورة وقشراً أكثر منه حقيقة ولب.إذهو فى الواقع الراهن لا يزيد عن أن يكون لعبة أدواتها الورق والقلم. فالصبيان يتعلمون شيئاً من الجغرافية على الورق ، وشيئاً من التاريخ على الورق ، وحساب البيع والشراء على الورق . والرسم ينقل من الورق إلى الورق . والأشعار تحفظ من الورق . وفى جميع البيوت أو أكثرها تجد ورقاً مضموماً بعضه إلى بعض ، يسمى الكتب ، ندعى كلنا أن فيها معلومات مفيدة . وقد نشأ من هذا التعليم أن كثر الورق حتى صرنا نقرأ عدة صحف من ورق كل يوم ، وصرنا نعتاض من التمثيل مثلا آخر، ينقل من ورق أو ما يشبه الورق إلى ورق أو ما يشبهه . ولكن أولئك الفلاسفة الذين تخيلوا التعليم العام لم يعتقدوا قط أن هذه الثقافة الورقية هى نتيجة أحلامهم . وهم ، لو سألتهم كيف يجب أن يعلم الرسم ، لأجابوك على الفور : فى الحقل ، وفى الغابات، وفى الأسواق ، وعند قطعان الغنم ، وأمام بواسق الأشجار . ولو أنت طلبت من ولز : كيف يجب أن نعلم الجغرافيا أو التاريخ ؟ . لأجابك على الفور : وهل مثل هذا السؤال يسأل ، وهل فى العالم سبيل آخر إلى تعلمها غير السياحة ؟ . وهل من العدل أن يموت إنسان فى هذا العالم لم يعرف البحر أو الجبل ،ما هما ؟ . ولو أنت سألت أحد الكيمائيين العظام : كيف نعلم صبياننا وشبابنا الكيمياء ؟ لما تردد فى الاجابة بأن

ذلك لا يكون بلا بوتقة ، ونحو عشرين أو ثلاثين أداة أخرى • ولكن الساسة الذين يديرون شؤون الأمم بغير حق يجدون أن التعليم بهذه الطرق يكلف الأمة نفقات طائلة ، فهم لذلك يمسخون التعليم حتى يجعلوه جملة ألاعيب مملة تصنع بقلم وورق ومداد . وهم يرون من السهل أن يقرأ الشاب فى كتابه أن حيوان البحر هو كيت وكيت ، تكتب له أنواعه فى قائمة كما تكتب فى الفنادق ، فيحفظها عن ظهر قلب . لأن هذا أيسر على رجل السياسة من إيجاد سمكة كبيرة تكلف العالم نحو عشرة آلاف جنيه . ومن السهل أيضاً أن يحفظ التلميذ درسه عن النبات من الورق ، وينقل رسومه بقلمه من ورق الكتاب إلى ورق كناشته ، لأن رجل السياسة الذى يدير حظوظ الأمم الآن بغير حق يجد أن تعليم التلميذ حياة النبات من الحقل والغابة يكلف الأمة نفقات كبيرة يخشى إن هو طلبها من الامة أن تسقطه فى الانتخاب . فهو لذلك يؤثر لعبة القلم والورق

ولكن العلماء يعرفون أن التعليم الحقيقى هو أن يحتك الإنسان بالطبيعة ويلابسها ، ويعرف منها ما يريد أن يعرف مباشرة . وأنه خير للصبى أن تلسع أصبعه بالنار من أن يقال له أن النار تحرق . وأن يوما، واحداً فى الصحراء ، يقضيه على رملها ويستنشق هوائها ، ويحس ظمأها ، وتكتنفه بداوتها ، خير له من أن يقرأ آلاف الكتب عن علاقة البداوة بالحضارة وحياة النبات والحيوان فى الصحارى

وليس من العدل أن نقول أن كل التعليم يجرى الآن بواسطة القلم والورق. والحق أنه لو كان كذلك لما تقدم الطب ولا الهندسة . فلقد كان الطبيب العربى يقصر علمه فى الأمراض على ما تعلمه بالقلم والورق . وكان الخلفاء يمنعون الأطباء من التشريح ، فبقى الطب لعبة سخيفة فى أيدى المشعوذين . وكان علم القرون الوسطى يجرى على هذا النحو أيضاً .فلما كانت النهضة الأوربية الحديثة أخذ العلماء فى هجران علوم الورق ولجأوا إلى الطبيعة ، فصاروا يشرحون النبات والحيوان ، ويجربون بأيديهم التجارب العلمية . ولكن هذا الهجران لم يتم تماما، فإن معظم ثقافتنا الآن هى ثقافة الورق . وهى لذلك لا تقترن بأذهاننا ذلك الاقتران الشرعى المنجب ، بل هى تخالل أذهاننا مخاللة عقيمة . فلو انا مثلا كنا نعرف النبات بأقسامه وأنواعه ، حية ومتحجرة ، لأثمرت معرفتنا وأصبح كل منا أشبه شئ بمكتشف أو مخترع فى هذه المملكة العجيبة التى يصح أن يقال عنا فيها:أنا نسمع عنها ولا نراها

وما يقال عن التعليم يمكن أن يقال مثله عن سائر الأشياء التى حلم بها الفلاسفة فأخذنا قشورها العامة وتركنا لبها . فإن المدن الحاضرة ، وما فيها من نظام أكثره قائم على وفرة مخترعات النقل ، يرجع إلى أحلام الفلاسفة عن عصر الالات الذى تنبأوا به . ولكن هؤلاء ، عندما كانوا يفكرون فى اختراع الآلات ، كانـــــوا ينظرون منه إلى أن يوفروا

على الناس وقتهم كى يشغلوه فيما هو أزكى لنفوسهم وأدعى لراحتهم.
ولكن عامة الأمم أخذت من اختراع الآلات ذريعة لزيادة ثروة أصحاب المصنع ، ولو كان فى ذلك زيادة جهد العمال واشتغالهم بالكفاح للمعاش

تطور الأحلام

قد يكون من القحة أن تخبر فتاة عن تأويل ما رأت فيما يرى النائم من أمير بهي الطلعة وسيم القدقد حياها وحاول أن يقبل يديها أو فمها. فإن في التأويل الصحيح اتهاماً لعقلها الباطن ، الذى ينطلق وقت النوم، ويفرج لشهوات الجسم ما قيد منها العقل وقت الصحو . والأحلام سواء أكانت من رؤى اليقظة أم من رؤى النوم دليل على شهوات أو رغبات لا يحققها الوعي أو اليقظة التامة

وقد يكون أسد للمؤرخ ، وأجدى عليه ، إذا هو نصب نفسه لدرس تاريخ أمة ما ، أن يعمد إلى خرافاتها التى تتكشف فيها أحلامها فيدرسها ويعرف منها تلك الشهوات والنوازع التى كانت تعتلج بها نفوس أبنائها . فسرد تاريخ الفراعنة مثلا بما فيه من حروب وأسرى وانتصارات ونحو ذلك، قد يكون أقل جدوى فى معرفة تاريخ الأمة من تحليل قصة خرافية واحدة كانت تتحدث بها العامة فى سمرهم . لأن فى هذه الأحدوثة تتجسم رغبات هؤلاء العامة ، وهى تمثل ما كانت تشتهيه نفوسهم . وهى أصدق فى وصف أحوالهم من الأكاذيب التى كان الفراعنة يكتبونها أحياناً عن أنفسهم قبل وفاتهم

وقد كانت أول " طوبى " فكر فيها الإنسان من الطوبيات الخرافية التى دخلت فى صلب الدين . فإن المصرى القديم مثلا ، عندما وجد أن إصلاح الحال فى الدنيا من المحال ، وأن قوى الاستبداد متألبة عليه ، وأنه يسخر طول النهار فيكدح فى وهج الشمس ، أخذ يحلم بنعيم يراه بعد الموت . فهو يكدح هنا ، ويتهضمه الولاة الظلمة ويصدمون فيه شهوات نفسه . وعلى ذلك فهو يرى فى نعيم الآخرة ميزانا منصوباً لمعاقبة هؤلاء الظلمة ، ويرى الهناء والراحة فى ظلال الأشجار التى تتغلغل بينها جداول الماء . وهو فى هذا الخيال الحلو لم يختلف عن الجائع أو العطشان الذى لا يرى فى نومه سوى الموائد مبسوطة ، والشراب مصفى ، إلا من حيث أن حلمه قد صار حلم الأمة بأسرها ، وخرجت رواية الفرد إلى رواية المجموع

ثم جاء الفيلسوف فرسم طوباه لهذا العالم ، لا يعبأ بما بعد الموت ولا يبالى بمصير الرمم . ولكن الفيلسوف ، من ذوى الأحلام الأرضية ، لفرط اعتماده على الحقائق الملموسة ، عنى بالمادة أكثر مما عنى بالمبدأ ، وبالوسيلة أكثر من الغاية . ولذلك كثيراً ما تتصفح الحلم فنتساءل عندما تبلغ خاتمته : هل هذه هى السعادة والرقى ، أو هل هذه ما نتعوض منهما .. وهل نحن بإزاء الأصل أم بإزاء البدل ؟

ثم قد نتساءل أيضاً : لماذا لم يتحقق حلم من هذه الأحلام مع مضى مئات السنين على بعضها ؟

وهنا نرى ميزة الأديان على أحلام الفلاسفة ومن دونهم من المفكرين . فإن الدين قبل أن يعد بطوبى العالم الآخر كان يطلب من الفرد أن يغير بالإيمان قلبه ، وأن تتبدل نفسه نفساً أخرى هى نفس المؤمن المرتاح إلى إيمانه الراضى به ، بدلا من نفسه السابقة ، نفس الكافر الذى توسوس إليها الشكوك . وكان هذا الإيمان وحده كافياً لأن ييسر على المؤمن كل تغيير يراه فى طرق المعاش والاجتماع والزواج ونظام الحكومة وغير ذلك . ونقول بعبارة أخرى أن الدين كان يحاول تغيير المجتمع بعد أن يبلغ قلب الفرد فيغيره ، بل يخلقه ، من جديد . وكان لذلك ينجح فى تحقيق غرضه ، لأن أداة تحقيق هذا الغرض هو الفرد . فاذا لم يكن هو قد تغير فكيف نطلب منه أن يغير طرق مجتمعه ؟

وهذا هو الفرق بين الأديان وبين أحلام الفلاسفة . فالأديان جعلت تبديل الوسط رهناً بتبديل الفرد ، فاستطاعت أن توجد هيئته الأجتماعية مسلمة أو مسيحية أو يهودية . ولكن طوبيات الفلاسفة ، وخاصة فى القرن التاسع عشر ، لم تبال بالفرد أقل مبالاة وإنما عنيت بالوسط

ففي القرن التاسع عشر نجد صيحات إصلاحية عديدة أعلاها نبرة هى صيحة الأصلاح الأقتصادي . ولكن منها أيضاً ما كان يدعو إلى إصلاح الحكومة أو التربية ، أو نحو ذلك من ملابسات الوسط الذى يعيش فيه الإنسان . وكلها خالية من شرطين أساسيين لنجاح أية دعاية

الشرط الاول : أن الغاية لم تكن واضحة ، هل هي الصحة أو الجمال أو حسن الإدارة أو كثرة المال . وهب أن هذه الأشياء كانت هى أو بعضها غاية ذوى الأحلام من الفلاسفة ، فهل كانت تؤدى إلى السعادة والرقى؟

الشرط الثاني : أنها كانت خلواً من إيجاد أية وسيلة لتغيير الفرد . فان الأديان غيرت قلوب الناس ، وتمكنت بذلك من إنفاذ ما حسبته إصلاحا ، ولكن الطوبويين لم يغيروا شيئاً من قلوب الناس تمهيداً لقبولهم برامجهم

وجمهور الناس فى كل أمة ليسوا عامة فقط بل أوباش ، يميلون إلى القرد أكثر مما يميلون إلى السبرمان . ومن هنا تلك السهولة التى يملك بها زمامهم خطيب مفوه أو طاغية ما كر أو ولى أبله ، لأن هؤلاء يخاطبون عواطفهم التى تستجيب إلى خطابهم ، أما الفيلسوف الذى يخاطب فيهم عقولهم فلا يجد فيهم ملبياً . والعواطف أقدح وأرسخ فى طبيعتنا من العقل ، وهى إذا طمت بنا طغت على العقل.

وعلى ذلك نقول أن الطوبيات الأرضية لن يفلح أصحابها فى تحقيقها ما لم يغيروا نفوس الأفراد . وليس هذا بالشىء العظيم كما يتصور القارىء . فقد أستطاع الدين أن يغير قلوبهم ، فلم لا تغير اليوجنية عقولهم بمنع البله والضعفاء من التناسل ، حتى يرتقى الإنسان جيلا بعد جيل ، فيتمشى رقى الوسط مع رقى الإنسان نفسه ؟

وخلاصة فصلنا هذا أن الطوبيات قد تطورت ثلاثا:

١- طوبى العامة التى نراها فى أحاديثهم القديمة والحديثة ، وهى سلواهم تكمل لهم ما نقصهم من حقائق الحياة

٢- طوبى الأديان وهى فى الحقيقة طوبيان : واحدة فى العالم الآخر،وهى ترمى إلى تغيير نفس المؤمن بوعده بالمكافأة . فاذا تغيرت النفوس وقبلت الإيمان لم تعارض فى الطوبى الأرضية التى يرسمها الدين لنظام الحياة على الأرض

٣- طوبى الفلاسفة ؛ وهى لا يمكن تحقيقها ما لم يكن غرضها واحداً وهو السعادة والرقى . أو الحياة الطيبة التى تعمل لراحة الفرد وهنائه وارتقاء الأجيال ، وما لم تحارب البلاهة فى الأمم بمنع البله والمضعوفين من التناسل

نقد ومراجعة

كانت معارف الإنسان إلي ظهور " أرسطوطاليس " واحدة ، كلها أدب . فلم يكن فاصل بين الأدب والعلم،لأن الأديب وهو رجل الخيال كان أيضا عالما . وكان العالم وهو رجل الحقيقة أديبا خياليا . فلما جاء أرسطوطاليس وشرع في تأليف " التاريخ الطبيعي " نزع فيه نزعة علمية قائمة علي المشرط رالتجربة ، فميز بذلك بين العلم والأدب.وظهرت بعده مدرسة الاسكندرية ، وكانت قيمة العلم فيها والعناية به أكبر من قيمة الأدب ، وجاء العرب ، ولم يكن أدبهم مما يغرى النفس بالخيال ، إذ كان عماده الألفاظ وما يلحق النفس من الطرب لرنينها . فاندفعت منهم جماعة كبيرة نحو العلم التجريبى . فلما كانت النهضة الأوربية الحديثة عاد الأوربيون إلى الإغريق القدماء، عن سبيل العرب، فنزعوا نزعة علمية عن العرب ونزعة أخرى أدبية عن الأغريق . وبيان الفرق بين العلم والأدب يحتاج إلى بعض التفصيل . فالعلم موضوعى والأدب ذاتى . والعلم يبحث قطعة من

المعدن ، أو مرضاً من الامراض، أو نجماً أو نباتاً ، وهو بعيد عنه لا ينظر لعلاقته به،ولا يبالى بمنفعة هذا البحث أو ضرره للإنسان . فقد يهتدى العالم فى بحثه إلى سم من أوحى السموم ، فلا يدخل فى بحثه أن هذا السم يمكن أن يستعمل فى الحرب لقتل العدو ، ويمكن أن يكتشف عن سبيله سم آخر لقتل النوع البشرى كله . وقد يهتدى إلى اختراع آلة،فلا يبالى بعدد العمال الذين يستغنى عنهم باستعمال هذه الآلة ، لأنه لا يعنى بعلاقة العالم الذى يبحث فيه بالإنسان،وإنما كل عنايته بالعلم نفسه ، يبحث فيه وهو غريب عنه بعيد عن منفعته أو ضرره . فاذا رأيت عالماً يبحث فى توفير الوقود ، أو زيادة كفاية الآلة فى العمل ، ألفيته مشغولا بهذه الاشياء دون أى اعتبار لتأثيرها فى العامل الواقف أمام هذه الالة وما ينشأ بينه وبين صاحب الآلة من العلاقة الجديدة لهذا الفرق الجديد فى الوقود أو العمل

وهذا بخلاف الاديب ، فإنه يبالى بالانسان لا بالأشياء . فهو لا يمارس الأدب لذاته ، كما يمارس العالم العلم لذاته ، وإنما هو يزاول أدبه لعلاقته بالانسان وهو بذلك خيالى ، يبحث فى الدين والأخلاق والشرائع، فالأدب بطبيعته إصلاحى موضوعه الانسان . والعلم لا يمكن أن يكون اصلاحياً أو افسادياً لأن موضوعه الاشياء فقط .والاديب يعكس جميع المعارف فى ذهنه لكى يعرف منها أيها مفيد للانسان فيزاوله ، وأما ما

لم يكن كذلك فلا يفكر فيه ولا يكترث له . حتى العالم وهو يبحث فى شىء انسانىء ينظر اليه كأنه " شىء " مستقل عن الأنسان . فالألماس زينة المرأة "كربون" والحمى ناشئة عن "مكروب"

وفى كلمة "سقراط" ما يدل على روح الأديب فقد قال : " أنت تعرف أن الاشجار فى الحقول لا تعلمنى شيئاً . وانما أنا أتعلم وأنتفع من الناس فى السوق "

ولكن جاء " أرسطوطاليس " فقسم المعارف قسمين :

المعارف الخارجية التى لا يمكن جميع الناس أن يتناولوها ، وهذه هى الأدب بفروعه . وأساسه التجارب الانسانية . ثم المعارف الداخلية وموضوعها الأشياء ودرسها ، وهى العلم . والأولى هى معارف العامة. أما الثانية فهى معارف الخاصة

ونحن للآن نجرى على هذا التقسيم . فلأى فرد من العامة أن يتكلم أو يكتب ماشاء عن الدين أو الأخلاق أو الشعر أو القصص أو العمران أو الأقتصاد ، ولكن ليس له أن يكتب عن الكيمياء أو الطب أو الهندسة .

وقد قلنا ان النهضة الأوربية الحديثة نزعت نزعة علمية ، وهى لا تزال كذلك للآن . وليس شك فى أن كبار العلماء فى كل وقت كانوا من كبار الأدباء ،لأن الذهن الكبير يأبى أن يرضى بأن يكون مخزناً تذخر فيه المعارف بلا غاية أو قصد . واذا قلت " الغاية فى العلم " فقد

فقد قلبت العلم الى أدب . لأنك عندئذ لا تكتفى بأن تقول أن الألماس كربون ، بل تضطر الى أن تتساءل : هل هو جميل ؟ . وهل هو جدير بنفقة استنباطه ؟. وهل من المصلحة العمرانية أن تلبسه طبقة دون طبقة من الناس ؟ ثم أيهما اجمل وأنفع لبنى الانسان ؛ أن يتجه نظرهم نحو جمال الوجه أو جمال الصنعة أى أن تكون الأصابع جميلة في ذاتها أو مجملة بالالماس ؟.

لذلك كان ولا يزال كبار الأدباء علماء ، وكبار العلماء أدباء . وحسبنا أن نذكر " أرسطوطاليس " الذى كان يؤلف عن أصول البلاغة والتاريخ الطبيعى،أو " دافنشى " الذى كان يمارس ويخترع الطيارات . أو " جيته " الذى كان يشتغل بالتشريح وبتأليف القصص والشعر . ولكن جمهور العلماء الآن طائفة خاصة بعيدة عن طائفة الأدباء . وهذا البعد بينهما ، وانفصال الواحدة عن الأخرى ، قد أثر أثره في الهيئة الأجتماعية التى نعيش فيها

وذلك لأن الأدب بجميع فروعه لا يحيا ويزكو الا اذا قام على أساس العلم . والعلم نفسه معارف جوفاء لا غاية لها الا اذا هضمها الأديب ومثلها في ذهنه . ومن هناانفصل الأدب والعلم كلاهما عن الحياة . فالأديب الآن ، سواء أكان رجل دين أو تصوير أو قصص أوشعر أو غير ذلك من فنون الادب، يبحث مثلا عن السعادة المنزلية وهو لا يدرى شيئاً عن مادة البناء أو أنواع النبات الذى يستطرف للزينة

او هندسة التهوية الصحية أو تطهير المدن أو غير ذلك مما يعرفه العالم ويختص به . ولكن العالم أيضاً ، وهو يعرف هذه الأشياء ، يجهل عنصر الجمال في المنزل،فيبنيه كأنه يبني سجناً أو مصنعاً

وخلاصة ما تقدم كله أن أحلام الفلاسفة يعتورها في جملتهانقص عظيم ، وهى انها نتاج افكار الأدباء أو أفكار العلماء . وقلما نجد اديباً عالما ، مثل أفلاطون أو ولز أو هدسون ، يحاول أن يجمع بين الادب والعلم فى تخيل طوباه . والحقيقة أن الانسان فى زمننا الحاضر يشق عليه أن يجمع بين الاثنين الا اذا قنع من العلم بالتطرف من فروعه المختلفة دون الإمعان فيها .وعلة ذلك أن العلم قد تقدم وصارت الأحاطة بأحد فروعه تستغرق الحياة بأجمعها ، فاما أن يطول العمر حتى يبلغ مائتى عام أو ثلثمائة،واما أن نقنع بقليل الدرس منه

ولكن يجب أن نعرف أن تقدم العلوم ، بحيث لا تتمشى مع الآداب ، يؤذى الناس ولا يفيدهم . فاذا عرف الناس مثلا علم الكيمياء وما هى الغارات القاتلة التى تفنى منها الجيوش أو المدن فى ساعة ، دون أن يكون لهم مع ذلك خيال راق أو عقيدة سامية فى مستقبل الإنسان ، أو معنى مهذب للجمال ، كان عملهم بالكيمياء ضرباً من أذى النفس الذى يجب أن يحتاط الناس منه

وحضارتنا الراهنة هى حضارة العلم المنفصل عن الأدب ، أى حضارة الصناعة القائمة على إدمان الإختراع الآلى إلى أقصى حد.

. ولكن الصناعات مهما أوتيت من رقى إن هى إلا وسيلة وسبب من وسائل الحياة وأسبابها ، ولذلك ما زلنا نحن على رقينا الصناعى الحاضر نتساءل : أينا اصح نظراً للحياة والسعادة وتقدير الجمال والرقى ، نحن أم المصريون القدماء أم الأغريق القدماء ؟

فاذا أردنا أن نشرع فى تخيل أخيلة صحيحة يمكن تحقيقها يجب قبل كل شىء أن نصل ما افترق من العلم والأدب . ولا عبرة بتأخير الأدب فى هذه الحالة . فإن تقدمه وحده لا فائدة فيه . إنما يجب أن نذكر أن العلم إنما ارتقى وحده لانفصاله عن الحياة ، أو بعبارة أصح نقول أنه ارتقى لأنه حين تجرد من العامل الشخصى وصار موضوعه الأشياء دون الناس ، انطلق من جميع القيود التى يضعها ذوو السلطان الحكومى أو المالى او الدينى على فنون الأدب. كما هو الواقع الآن فى معاملتهم للبحث الدينى أو العمرانى . فلن يرقى الأدب حتى ينطلق هو أيضاً من هذه القيود بحيث يحوز عمل التجربة العمرانية كما تعمل التجربة الكيمائية ، ويحوز ابتكار العقيدة الدينية كما يحوز اختراع آية آلة للصناعة . فاذا تخيل الأديب خياله ورسم طوباه، لم يكن ذلك لمجرد اللذة أو التسلية ، وإنما هو يبنى على قواعد العلم. بحيث يصير خياله عملياً تتيسر تجربته فى مدينة أو قرية أو قطر

ومعظم ماوضع من الطوبيات فى القرن التاسع عشرعنى فيه أكثر مما

يجب بالنظام الإقتصادي للأمة . وكان هذا طبيعياً للإنقلاب الإقتصادي الكبير الذي حدث في القرن الماضي بانتشار الآلات . ولكن النظام الإقتصادي ليس كل شيء

وهو أيضاً لا يمكن حله ما لم تحل إلى جانبه مسائل أخرى . لأن الاعتماد على حل مسائل الحياة بتنظيم عمل الآلات هو حل علمي موضوعي ناقص . لأن الحياة تحتاج أيضاً إلى حل أدبي يدخل فيه الإعتبار الديني والثقافي والأخلاقي ، ولن يكون ذلك حتى يكون الأديب عالما أو العالم أديباً

وبعبارة أخرى نقول أن الامة التي ترقى فيها مركبة كالأتومبيل مرة كل عام بأُختراع أداة جديدة ، لا تعتبر أنها سائرة نحو الحضارة الصحيحة ما لم يرتق دينها وينتح على الأقل مرة في العام أيضاً . والحضارة التي تعنى بمكتشفات العلم لن تكون حضارة صحيحة ما لم تعنى بمكتشفات الأدب . والأمة التي تجرب طريقة جديدة لمزج الأصباغ لن تكون حياتها صحيحة ما لم تجرب إلى ذلك طريقة جديدة للمعيشة بين الأفراد ، بحيث يساوي رقيها العمراني رقيها الصناعي .

خيمى : مقدمة لطوبى مصرية

" الزمـان نوع من المكان . فـبـدلاً من أن أقـول : منذ ألف سنة حدثت تلك الحـادثة ، يمكننى أن أقـول : أن تلك الحـادثة حدثت فى المكان الفـلانى فى الفضـاء ، فى دورة الأرض الفلانيـة عند حـركـة الشـمس الفلانيـة ..لو كان تحـقـيق حـركـتى الأرض والشـمس يمكن تعيينهما فى مكان فى الفضـاء . فأفهم عندئذ من هذا القول ما أفهمه من قولى: منذ ألف سنة حدثت تلك الحادثة . بل يكون فهمي هنا أدق وإدراكى للحادثة أوضح "

كنت أتلفظ بهذه الألفاظ بصوت أسمعه ، كما هى عـادتى عندما أريد أن أوضح لنفسى شيئاً غامضاً ، لأن اللفظة عندى هى أسـاس المعنى . وليس المعنى أساس اللفظ

وأنا فى هذا ، أحاول أن أميز بين الزمان والمكان ، واذا بالنعاس يغلبنى ويكاد يتطور إلى نوم . ثم إذا بوعى العقل الظاهر ينقلب إلى أحلام العقل الباطن . ثم فترة من التردد ، بين الصحو والغفو ، ثم النوم. ولكنه لم يكن نومـاً إلا فى ظاهر الجسم ، أما فى باطن الأعـصـاب والدماغ فقد كانت الأفكار تتأرجح ، والخواطر تترادف وتتـجـمع ، ثم تتشتت وتتبدد. وبعد برهة ، فقدت الشعور بزمانها (أو بمكانها) أحسست كأنى أنحـــدر ونيدأ إلى حيث ينقشع الظلام وينبلج الضوء

ثم استنشقت أنفاس الصباح ، بل كرعت منها وعببت فيها ، كأني لم أذق طعم الهواء النقي منذ سنين . وهببت من فراشي وأنا أقول " تأخرت . تأخرت ".ولكني قعدت ثانياً في الفراش عندما نظرت إلى ما حولي.فإن الغرفة لم تكن غرفتي ، ولا الفراش فراشي . ونظرت إلى الحائط فوجدت معلقاً عليه نتيجة وبها هذه الأرقام : ٧ فبراير ٣١٠٥

وتأملت ما حولي فوجدت المرتبة والوسادة واللحاف كلها مصنوعة من الكاوتشوك المنفوخ . والغرفة نظيفة ناصعة . فقلت في نفسي:"لا بد إني كنت مريضاً وجاءوا بي إلى هذا المستشفى اليهودي ، إذ لاشك في أن هذه السنة يهودية تبتدىء من موسى . وموسى جاء قبل المسيح بنحو ١٣٠٠ سنة . هؤلاء اليهود لا ينسون تاريخهم . ولكني لا أعرف لماذا أحضروني هنا ، فإني لا أتذكر أني مرضت "

ثم نظرت إلى جسمي لأرى به علامة جرح أو كسر فلم أجد. فكددت ذاكرتي أبحث عن حادثة في الماضي فلم أهتد . فقمت من الفراش ، وسرت نحو النافذة ، ولكني لم أخط خطوتين حتى صكت أذني صرخة ، فالتفت الى الوراء فرأيت فتاة تعدو وهي تقول : " النائم صحا . النائم صحا "

ولم تمض دقائق حتى سمعت المستشفى كله يردد هذه العبارة : "النائم صحا ".وبعد نحو ربع ساعة سمعت الشارع كله يتجاوبها. فتحاملت الى النافذة ، وانا أكاد أقع من الضعف ، وأطللت ،

فرأيت جموعاً من الناس في هيئة غريبة يتصايحون : " النائم صحا ، ها هو ذا ينظر ، أنه شاحب . قد لا يعيش . يجب أن يرد الى الفراش أين المرضات والاطباء ؟ "،وكان الآباء يحملون الأطفال على أكتافهم لكى يرونى من الزحام . وحلقت فى الجو قريباً من النافذة نحو خمسين طيارة صغيرة ، ووقفت ، ينظر الى ركابها

وبينما أنا مشغول بهذا المنظر ، واذا بيد توضع على كتفى فالتفت ووجدت رجلا نحيفاً ، طويل الوجه ضخم الرأس ، عليه ملامح البنات ، يقول لى بصوت عذب : " هل لك أن تعود الى الفراش ؟ .أنت مازلت ضعيفاً "

وكان فى الفاظه حلاوة وإغراء . فعدت الى الفراش، واضطجعت، فقعد على كرسى بجانب سريرى ، وأخذ يجس نبضى ويفحص لسانى ويتحسس أجزاء فى جسمى . ثم قال : " يبدو لى أنك قد عوفيت ، ولكن يحسن عقد مجلس من الاطباء للإقرار على شأنك "

فقلت : " ماذا كانت علتى ، ومتى يسمح لى بالعودة الى البيت؟" فضحك ضحكة طويلة دون القهقهة ، وقال : " يظهر أنك تجهل كل شىء . لقد مضى عليك هنا ١١٨٠ سنة . إن حادثتك غريبة فقد أصبت سنة ١٩٢٥ بفالج فى الدماغ،فذهب عنك وعيك ، وبقيت سائر أعضاء جسمك تعمل كما لو كنت صاحياً . كنا نغذيك وأنت نائم حتى ذهب عنك الفالج فصحوت الآن . لقد نمت ١١٨٠ سنة "

ولكن هذا الكلام لم يجز الى عقلي . ورأيت من العبث أن أجادل هذا الرجل ، فتجاهلت كل ما قاله وقلت بثبات وعزم : " أريد أن أرى عائلتي "

فعاد الى ضحكته التي تراءت لي هذه المرة أنها سخيفة جداً ، وتبدت على وجهه عندئذ ملامح الوغد الذي يتعلل لحبسي وإيهامي أوهاما كاذبة . فقلت وصوتي يتهدج بما يهيج في نفسي من الغيظ : " إذا لم أذهب إلى عائلتي فأنا أقفز من هذه النافذة وأنتحر . وأنت المسئول "

فعلت وجهه حمرة الأضطراب ، وقام يتلطف ويسري عني ، ويقول : " ستخرج قريباً بعد استفتاء المجلس ، لا تخشى شيئاً . كلنا يحب لك الخير والراحة . لا تخشى شيئاً ، أنظر قد حضر بعض الأعضاء"

فنظرت الى الباب ، فاذا بخمسة أو ستة أشخاص يسيرون نحو غرفتي . وتأملتهم عندما دخلوا فوجدت فيهم أثنتين من النساء ، واخذوا جميعهم يفحصونني ، وأقروا على أن صحتي جيدة . وأذنوا لي في الخروج بعد تناول الطعام .

فقدم لي طبق من فواكه مختلفة لا أعرف أسماءها ، ولم يقدم لي شيئ مطبوخ ، فقلت : " هذا لا يقيتني . ارجوكم ان تحضروا لي لحماً وخبزاً فإني أشعر بالجوع الشديد "

فلاطفنى أُحدهم وأخبرنى بأن فى هذه الفواكه ما يزيد على حاجة جسمى من الغذاء ، وفيها طعوم مختلفة حلوة وملحة . ثم رتبها لى ، فأكلت أولى الأثمار فكانت تشبه فى طعمها اللحم . ثم أكلت شيئاً من الجوز ، وكان يسيل دهنا . ثم تناولت ثمرة جميلة اللون ذكية الرائحة قريبة فى الطعم من الكمثرى . وأحسست بالشبع والرى من هذا الطعام اللذيذ

ثم أنفض المجلس ، وبقى الشخص الأول، فقال لى : " والآن هل تريد أن تخرج الى المدينة ؟

فقلت: " اجل . هذا ما أُريد " . فناولنى سراويل ومعطفا لبستها وخرجت معه

وما أشد ما كانت دهشتى عندما رأيتنى فى مدينة غريبة يتزاحم أهلها لرؤيتى . وكانوا كلهم يشبهون رفيقى ، طوال الأجسام ضخام الرؤوس نحيفى الابدان . لا يختلف الرجل عن المرأة الا فى أن له شاربين دقيقين . أما اللحية فكنت أرى شعرات فى مكانها أو لا أرى شيئاً . وكانت أفواههم صغيرة ، وبعد أن أختلطت بهم عرفت أن ليس لهم أسناناً فى الفك الأسفل . أما أسنان الفك الأعلى فلم يبق منها الا اعجازها . وأخبرنى هذا الشخص الذى كلف بمرافقتى عن أشياء كثيرة خاصة بى وبالمدينة التى نسير فيها. فحكى لى أنى عشت عيشة نباتية ، وانا مسطح على فراشى دون أن أعى،

وكيف أن هذه المعيشة كانت سبباً فى أن أعمر هذا العمر الطويل، لانى صرت بمثابة الشجرة لا أجهد الا أقل الجهد . وكيف ربت أموالى حتى صرت الآن من أغنى الناس . ففى سنة ١٩٢٥ كنت أملك ٥٠ فداناً ، ولم يكن ينفق على بعد الفالج الا ربع عشر فدادين ، وما تبقى من الريع يتوافر بأسمى . حتى أن أولادى لم يرثوا شيئاً منى لا هم ولا أحفادهم، وعلى الرغم من مقاضاتهم لى لم تستطع محكمة أن تقر على موتى ، فتراكمت أموالى بهذه الطريقة . ثم قص على تاريخ مصر فى الالف السنة الماضية.وكيف حدثت فيها ثورات اشتراكية ، وكيف أخفقت التجارب الاولى للحكومة، ثم أنتهت بالنظام الحاضر . وأخذنى في اليوم الاول لخروجى من المستشفى وأرانى بعض مناظر مصر أيام كنت أعيش فيها قبل أن أمرض . فعرض عليا جملة أشرطة سينما فوتوغرافية، ورأيت بلادى كما كنت أعرفها . ثم عرض على أشرطة أخرى من المائة السنة التالية ، ثم الثالثة ، وهلم جرا ، الى أن أبلغنى مناظر " خيمى " أى مصر فى عصره

وكان قد أستقر فى ذهنى الآن أن ما رواه لى عن مرضى صحيح . وقد كنت فى حياتى السابقة أعرف شيئا عن نظرية التطور ، بل أدعو الى الايمان بها ، فلم يكن من الصعب اذن أن أستضيء بضوئها فى الظرف الحاضرة . ولكن علمى بهذه النظرية أسقط كرامتى بعض

الشيء . فإنى كنت أنظر الى نفسي كأني متأخر عن هؤلاء الناس نحو ١٢٠٠ سنة . وكأني بينهم بمثابة انسان متحجر حي . والحق أنهم كانوا ينظرون الى على الرغم من تأدبهم ، هذه النظرة المهينة . فقد كنت ارى عيونهم تثبت في وجهي ، وتتفحص هيئة دماغي . وكان صبيانهم يتجرأون أحياناً على لمس لحيتي ، ويتعجبون من خشونتها ، كما كانوا يصرحون أحياناً اخرى بتعجبهم من صغر رأسي

وعدت عند الأصيل الى غرفتي، فوجدت ممرضتي التي قدت لى طعاماً من الفاكهة أيضاً. وأخذت في الحديث معها ، وكان قد غادرنا رفيقي، وشعرت ونحن في وحدتنا بالغرفة بشعور عائلي بيني وبين هذه الفتاة، وقد عرفت منها أنها عنيت بتمريضي نحو ثلاثين سنة . وكان هذا وحده كافيا لأن أدل عليها بحق الصحبة القديمة والعشرة الطويلة . ثم قصت على حالي أيام مرضي. ولم تكن القصة طويلة، إذ كانت تتلخص في أنى كنت في سبات حال بعض الحيوانات وقت تشتيها ، حين تتحجر وتنام ثلاثة أو أربعة شهور لا تأكل فيها، ويقتصر نشاط جسمها على التنفس مع دورة دموية بطيئة جداً. ولما رأى الأطباء أنى سأموت لا محالة إذا لم أتغذ صاروا يحقنون عروقي بمواد مغذية نحو مرة كل شهر تقريباً، فكانت الحقنة تمسك رمقي. واتبع الاطباء هذه الطريقة معى وجعلونى أعجوبة الدهر، حتى قيل لى أنه قد ألفت كتب

فى حالتى هذه وتعليلها بجملة علل . وآخر ما ظنه بعضهم أنى أختلف عن سائر الناس فى تركيب بعض الغدد الصماء . وقد ارتأى بعضهم تشريحى بعد موتى ، ولكنى أخلفت ظنهم إذ صحوت

وكانت الفتاة تخاطبنى بصوت جميل فيه بحة مستملحة . وكانت طويلة ، ضخمة الرأس ، لا يكاد يكون لها صدر يشبه صدور النساء البارزة . وكانت تلبس لبس بنى عصرها . فالساقان والذراعان والرأس عارية ، والحذاء بلا جورب . وليس على جسمها من الملابس سوى قطعة من نسيج واسع متخلخل أشبه شىء بالكاوتش ، يغطى ما بين العنق والساقين . وكان الرجال والنساء سواء فى ذلك . أما شعر الرأس فكان يرخي حتى يغطى الوجه والقفا

وألفت هذه الفتاة التى عرفت أن اسمها " راديوم " وشعرت منها كأنها قد ألفتنى . وكان فى نظرتها لى شىء يحببها إلى ، إذ لم أكن أرى فى عينيها ذلك الإحتقار الذى كنت أراه فى سائر أهل " خيمى " عندما كانوا يتفرسون فى هيئة رأسى وكونها دون رؤوسهم فى الحجم . وكانت تشرح لى كل شىء خاص بأحوالهم ومعاشهم ونظامهم . وكنت كل يوم يزيد ارتباطى بها وتعويلى عليها ، حتى كنت أقف فى جانبها كالطفل فى جانب أمه

وشرحت لى غذاءهم : فوجدت أنهم لا يعرفون الطبخ ولا يذبحون

الحيوان . لأنهم قد أستنبتوا من الأثمار فواكه مختلفة منها ما ينفع غذاء ومنها ما يستعمل دواء . وبعض غذائهم كالنشا والسكر كانوا يستخرجونه من الجماد ، أي بالتركيب الكيماوى . وكانت الزراعة فى أيدي ناس خبراء لكل منهم معمل يستولد فيه البذور الجديدة ويقايس فيه الأغذية المختلفة مع طعومها الحلوة والمزيزة والملحة . ولم تكن عنايتهم بالأثمار من حيث الغذاء فقط ، فقد كانوا يلتفتون أيضاً الى الأرج واللون ، بحيث لا يقعد الإنسان الى طعام حتى يرى ما يغذو العين والخياشيم كما يرى من الطعم ما يلذ اللسان

وكانت مساكنهم فى غاية العجب . وبعضها مؤلف من طبقات، يحتوى المسكن على نحو مائتى نفس تقريباً من أولئك الناس الذين يميلون الى الألفة والأجتماع . بينما كانت هناك منازل منفردة بين الحقول يعيش فيها المغرمون بالعزلة أو المنكبون على درس موضوع خاص يستغرق كل وقتهم ويصرفون اليه جميع قواهم . وكانت حياتهم تسهل على الانسان الانفراد ، لأنه كان يجد فى وحدته كل ملاذ الأجتماع . إذ كان يجد فى غرفته جهازاً للتلفون الاثيرى ، فيسمع من الخطب والمحاضرات والأخبار ما يشاء ليلا أو نهاراً . وكان إذا أراد أن يخاطب صديقه ، مثلت له صورته وسمع صوته وهو قاعد فى غرفته لا يريم . ولم يكن بالمدن ذلك الغبار أو الضوضاء الذى كنا نراه ، لأن الشوارع كانت جميعها مغطاة بالخشب أو الكاوتشوك . حتى الطرق

الزراعية كانت كذلك تقوم على جوانبها المصابيح الكهربائية ، فلم تكن البيوت تحتاج الى كنس وتنظيف لا ينقطعان . ثم كان أثاث المنازل يساعد على النظافة لأنه صار كله تقريباً من الكاوتشوك . وكانت الغرف تدفأ وتضاء ، كما كان بها أيضاً مراوح تدار باللاسلكى . وكان لكل فرد تقريباً أتومبيل خاص ، أو طيارة صغيرة ، وكلاهما يدار أيضاً باللاسلكى

ويمكن أن أقول أن حياتهم كانت على وجه العموم أنفرادية من الوجهة الحسية ، ولكنهم كانوا فى انفرادهم أكثر اجتماعاً منا من الوجهة المعنوية . فانى لم أعرف بينهم إنساناً لم يسمع غناء كل يوم ، أو لم يشاهد درامة تمثل فى مكان قد يبعد عنه بألف ميل ، أو لم يخاطب أصدقاءه النائين عنه فى أقطار أخرى مرة كل أسبوع على الأقل ويرى وجوههم ويضاحكهم ويجادلهم . فلم يكن ثم ما يدعو الى أن يعيش هؤلاء الناس معاً ، ثم كان لكل منهم مركبة هوائية أو أرضية تنقله الى حيث يشاء بأسرع من الريح

ولكنى مع إعجابى بهم لا أنكر أنى امتعضت كثيراً عندما علمت أنهم لا يعرفون الحياة العائلية كما كنا نفهمها

ومما زاد امتعاضى أن وجدت " راديوم " فى غاية الجهل وسوء العاطفة نحو هذه الحياة . فقد كانت عواطفى توسوس الى وساوس لذيذة عن حياة زوجية مع " راديوم " فأتمثلها معشوقتى وزوجتى ،

تسكن الى وأسكن اليها ، فى مسكن يكون عشنا ، نأوى اليه معاً
ويكون لنا من ثمرة الحب المتبادل صبيان روقة نتمتع برؤيتهم أطفالاً
ونشعر فى تربيتهم بلذة الأبوة

ولم تكن " راديوم " والحق يقال تشذ عن بنى جنسها فى سوء العاطفة الغرامية . فانهم كانوا جميعاً جامدين باردين،ينظرون بعقولهم أكثر مما كانوا يحسون بعواطفهم . ولا أذكر أنى رأيت أحداً منهم يغضب الى الاحتداد أو يفرح الى الطرب ، فأقصى غضبهم امتعاض ، وأقصى فرحهم ابتسام أو ضحك لطيف . ولم يكن الزواج لديهم قائماً على اعتبارات العشق،بل على اعتبارات المعيشة والغاية والنسل . فاذا سمع أحدهم عن فتاة تبحث أبحاثه وتدرس ما يدرسه تخابرا ، وينتهى تخابرهما الى ألفة،بحيث يعيشان معاً فى مسكن واحد . ولكنهما مع ذلك لا يجوز لهما النسل الا بعد شهادة من الحكومة بأنهما جديران بالنسل

وكان النسل أخطر ما تعنى له حكومة " خيمي " . والحق أننى عندما أتأمل فى أحوالهم أجد أنها كلها تدور حول العناية بالنسل . فقد استقر فى هؤلاء الناس أن الانسان كان فى الزمن البعيد يشبه القرد ، وأنه بالعناية والإنتخاب يمكن أن يرقى الى أن يكون حيواناً راقياً جداً من حيث العواطف والعقل . ومما ساعدهم وشجعهم على هذا النظر أن الاشرطة السينماتوفرافية التى حفظت لهم تاريخ ألف ومائتى

عام قد وقفتم على أحوال آبائهم ، ودرجة رقيهم المنحطة ، وكيف تدرجوا فى الرقى الى أن وصلوا الى حالتهم . فلم يكن فيهم من يستطيع التنطع بمجد الآباء ، لأن هذا المجد كان يرى على لوحة السينماتوغراف فترى عندئذ الوجوه الدميمة والغبار المتطاير والشوارع القذرة والرؤوس الصغيرة . وأذكر أنى تصببت عرقاً من الخجل عندما رأيت شريطا خاصاً بأحد الموالد كانت احدى الشركات قد أخذت صوره سنة ١٩٢٤ من القاهرة ، وتعجبت ، كيف كنا نعيش فى ذلك الوسط القذر

وكان عندما يولد غلام جديد تحضر للمنزل لجنة من العلماء ، فتفحص جسمه ، فان ألفته يليق للحياة والا قتلته فى المكان . ولم يكن الأبوان يغضبان من ذلك ، وكنت أسمع منهم أن أكبر ما يقتل لأجله الأطفال هو " الردة " أى أنهم يرتدون الى أصلهم فيخرجون برؤوس صغيرة

وقد تحادثت مع " راديوم " كثيراً عن هذا الموضوع ، فوجدتها لا تستفظع قتل الاطفال . وأجابتنى بلهجة باردة جداً بأنهم لا يحسون بالموت أكثر من أى حيوان آخر ، وأن مصلحة الأمة والأجيال القادمة تقتضى ذلك . أما طريقتهم فى التربية فكانت فى نظرى أفضل ما عندهم . فقد كان الطفل يبقى مع أبويه نحو ست سنوات ، ثم يؤخذ بعدها الى المدارس حيث يعلم تعليماً عمليا لذيذاً . فكانت الجغرافيا

والتاريخ، وأيضاً التاريخ الطبيعى، تعلم بالسينماتوغراف.فكان الصبى الذى لم يتجاوز العاشرة يعرف هذه الأشياء من المعارف الصحيحة أكثر مما يعرفه طالب قد بلغ الثلاثين فى مدارسنا القديمة . وكانت المدرسة عبارة عن ورشة ومكتبة يتنقل بينهما الطالب . وكان يمتحن امتحانين ، أحدهما امتحان حضارة خاص بنظام الحكومة وتركيب الآلات المختلفة والزراعة والكيمياء ونحو ذلك مما تقوم به الحضارة . والآخر امتحان ثقافة حيث يدرس تاريخ الأمم والأنسان القديم والفلسفات المختلفة التى نبتت من أذهان الناس من العصور البعيدة والأديان والآداب ونحو ذلك» وكان الطالب لا يترك المدرسة عادة قبل الأربعين . ولم تكن هذه المدة طويلة اذا أعتبرت أن أهل خيمى كانوا يعمرون الى نحو مائة وخمسين سنة. وكانت السياحات البعيدة الى ثلوج القطب الجنوبى، أو الى بوادى الصحراء، او الي الجبال الشامخة، من ضروب التربية التى يتربَّاها الشاب. فكان الشاب لا يخرج من المدرسة الا وقدرأى العالم كله تقريبا

أما نظام الأعمال والتكسب فكان يشبه ما كنا نسمع عنه من الداعين للإشتراكية فى زماننا. فقد كانت خيمى مقسمة الى ضياع بها دساكر ، يتبع كل دسكرة نحو ألف فدان ، وبها مصنع . وكانت الزراعة كما نفهمها الآن قليلة ، لأنه لم يكن يحرث من هذه الألف سوى نحو خمسين أو ستين فداناً لزراعة النباتات الغريبة السنوية، أما سائر الأرض فكانت مغطاة بالأشجار المعمرة» يؤخذ منها الطعام

واللباس والوقود . ولم يكن الري من النيل كما كان في عهدنا ، لأن هذا النهر كان قد جف تقريباً لأن أهل خيمى صاروا يزمون السحاب بأزمة علمهم ، يرتفعون فوقه بالطيارات ويطلقون عليه من المواد الكيمائية ما يجعله يتكاثف ويقع مطراً في أي جهة أرادوا وفي أي وقت شاءوا . أما مصانع الدسكرة فكانت تصنع كل شيء تقريباً بحيث أن كل دسكرة كانت مستقلة في معاشها عن الأخرى ، إلا في أشياء قليلة تبادلها وغيرها . وكان أهل النقابة أشبه شيء بشركة تعاون . ولم يكن يحتاج أحدهم الى العمل لمعايشه أكثر من ساعة في اليوم ، وسائر نهاره وليله يقضيه في المتع الذهنية المختلفة وفي متابعة أبحاثه العلمية، إذ قلما كان يخلو فرد من أبحاث علمية يملأ بها فراغة سواء في ذلك الرجال أو النساء

وكانت حكومة " خيمى " مؤلفة من خمس هيئات : الهيئة التشريعية والهيئة القضائية والهيئة الصحافية والهيئة الدينية ثم أخيراً الهيئة التنفيذية،فأما الهيئة التشريعية فلم تكن منتدبة من أفراد ينتخبونها كما كنا نعهد في زماننا . بل كانت تنتخبها النقابات المختلفة ، فلنقابة الأطباء مثلا ١٠ أعضاء ولنقابة البيولوجيين ، أي علماء الحياة ١٠ آخرون، ولنقابة علماء الزراعة ١٠ ، ولنقابة التجاريين ١٠ ، وهلم جرا .. حتى يتألف من ذلك مجلس به نحو ٥٠٠ عضو هو السلطة العليا للتشريع

وأما الهيئة القضائية فكانت أقل الهيئات ظهوراً فى الأمة ، لقلة عدد المتقاضيين . وكان القضاة ينتخبون عادة من طبقة رجال العمران والبيولوجية للفصل فى من يجب قتله من الناس أو منعه من التناسل ، ولم يكن ثم عقاب آخر

أما الهيئة الصحافية فكانت مؤلفة فى الحقيقة من عدة هيئات . فاحداها مثلا تشتغل بإصدار صحيفة يومية ، اما لاسلكية واما مطبوعة عن الكيمياء . وأخرى تصدر صحيفة أخرى عن الادب . وأخرى عن الطب . وهلم جرا وكانت الجامعات من الهيئات الخاصة بإصدار الصحف ، ولم يكن نطام الجامعات عندهم يختلف عما كان عندنا

أما الهيئات الدينية فكانت مؤلفة من نقابة عامة من الفلاسفة . ولم يكن يقبل فيها أحد دون السبعين . وكان رأيها هو الأعلى فى تقرير ما يؤثر فى ذوق الأمة ومزاجها وقصدها . فكانت تعين طريقة تدريس التاريخ،وتقرر بناء التماثيل لبعض مشاهير التاريخ أو هدمها . وتقيم التماثيل الخاصة بالجمال أو بالكفايات الإنسانية الأخرى فى الميادين . وكذلك الحال فى الموسيقى والتصوير والرقص ، تأمر وتنهى فيها كلها . لأن أهل " خيمى " يعتقدون أن ديانة الإنسان أحرى بأن تتكون من هذه الأشياء من أن تتكون من العقائد المحفوظة عن ظهر قلب

كما كنا نفعل فى أيامنا . ولأهل " خيمى " معابد يتعبدون فيها على انفراد ، وعلى عكس ماكنا نفعل . والمعبد عبارة عن بناء مستطيل كبير ، على كل جدار من جدرانه الأربعة صور تمثل بزوغ الحى الأول وتطوره الى الإنسان . ثم ما تخيله هؤلاء الفلاسفة وتنبأوا به عن مستقبل الإنسان فى صور أخرى تمثله ضخم الرأس كبير العينين شريف الطلعة دقيق الأطراف والأنامل . وفى جدار آخر صور أخرى تمثل ارتقاء الصناعة من عهد الإنسان الحجرى الى زمن أهل " خيمى " وفى جدران أخرى صورة عجيبة لمركز الأرض فى هذا الكون ونسبته اليه وفوق الأرض إنسان يتأمل مركزه فى هذا الفضاء الواسع . وفى الجدار الرابع صور الفلاسفة والأنبياء العظام ، وعلى شفتى كل منهم كلمة بارعة أثرت عنه وصار لها أثر فى التاريخ . والخيمى إنما يذهب الى المعبد ليتبين قصده فى الحياة ، إذا أحس بسأم أو ضلال . فيقعد هناك منفرداً يحاول أن يتصل بالكون وأن يعرف مركزه ومهمته فيه . فيرتاح قلبه ويهدأ ضميره،وإذا استمر به السأم قصد الى أحد رجال الهيئة الدينية،فيدرسه ويعنى به ، ويفتح له أبواباً ينشط بها نفسه

أما الهيئة التنفيذية فكانت مؤلفة من موظفى الحكومة المحليين والعموميين وعليهم انفاذ أوامر سائر الهيئات

وتتلخص حياة الفرد فى أنه يبقى مع أبويه نحو ست سنوات ، ثم يذهب الى الجامعة ولا يبرحها حتى الأربعين تقريباً . وهو فى تلك المدة

يرى أبويه ويعايشهما ، ثم يخرج ، فيشتغل فى إحدى الصناعات اليدوية وينتمى الى نقابتها . وعندئذ يصير فرداً ذا رأى فى مصير الأمة ، لأنه ينتخب عن سبيلها النواب فى الهيئة التشريعية والقضاة وأحياناً الصحافيين . ونقابته عبارة عن شركة تعاون أيضاً

فاذا دارت السنة عمل حساب الشركة . ما باعت من حاصلات الدسكرة الزراعية الصناعية وما اشترته ، ثم توزع الأرباح على الأفراد كل بنسبة عمله . والجزاء يستوى تقريباً بين جميع الأعضاء ، لأن المال انحطت قيمته عند أهل " خيمى " . ولكن هناك أفراد لهم نزعات خاصة ، يهوون مثلا امتلاك بيت صغير يزينونه بما شاءوا من التحف ، فهؤلاء يشتغلون أكثر من غيرهم لكى يتوافر لديهم من المال ما يقتنون به ما يشتهون من هذه التحف . ونقابة الدسكرة لا تمانع فى ذلك بل تشجع عليه ، لأن مال هذه المتلكات يؤول إليها بعد وفاة أصحابها ، إذ أن مبدأ الإرث كان قد أُلغى منذ زمان بعيد . ومعظم ما ينفق الخيمى ماله عليه هو الطعام والاتومبيل والطيارة (ولكل منهما عداد ، وهما يسيران باللاسلكى) . أما المسكن فيعطى لكل فرد بالمجان ، وكذلك الماء والنور والحرارة . وللنقابة مخازن يباع فيها الطعام واللباس بأبخس الأثمان

وأهل "خيمى" لا يبالون بكثرة النسل، بل بجودته. فقد كانت مصر فى سنة ١٩٢٥ نحو ١٥ مليوناً ، أمـــا فى سنة ٣١٠٥ فانهم

نزلوا الى نحو ١٠ ملايين فقط .ولكن ليس فيهم واحد يجهل الفلسفة أو مقداراً كبيراً من العلوم الاخرى . وقلما يموت أحد منهم دون أن يكون قد ساح الى القطب وعاد منه ، وذلك لأنهم وجدوا أن العبرة بالاشخاص كيف هم وليس كم هم

* * *

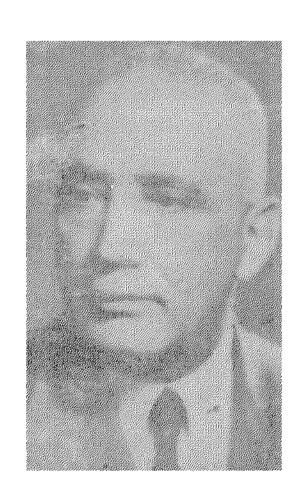
كان ابن عربى الأندلسى يقول : " لا ينبغى للعبد (يعنى للإنسان) أن يستعمل همته فى الحضور فى مناماته ، بحيث يكون حاكماً على خياله ، يصرفه بعقله نوماً كما كان يحكم عليه يقظة ... "

وبعبارة اخرى .. إن ما نشتهيه فى اليقظة نراه فى النوم . فلا تهزأ ، بعد ذلك ، بالأحلام

فهرست

مؤلفات سلامة موسى

مقدمة السبرمان
نشوء فكرة الله
الاشتراكية
اشهر الخطب
الحب فى التاريخ
مختارات سلامة موسى
أحلام الفلاسفة
حرية الفكر
اسرار النفس
تاريخ الفنون
اليوم والغد
نظرية التطور
المدينة الخاطئة
فى الحياة والادب
ضبط التناسل
جيوبنا وجيوب الاجانب
غاندى والحركة الهندية
السيكلوجية
ما هى النهضة
مصر أصل الحضارة
الدنيا بعد ٣٠ عاما
الادب الانجليزى الحديث
الشخصية الناجعة
حياتنا بعد الخمسين
حرية العقل فى مصر
البلاغة العصرية واللغة العربية
التثقيف الذاتى
عقلى وعقلك
تربية سلامة موسى
فن الحب والحياة
طريق المجد
محاولات
هؤلاء علمونى
كتاب الثورات
الادب للشعب
دراسات سيكلوجية
المرأة ليست لعبة الرجل
برنارد شو
أحاديث الى الشباب
مشاعل الطريق للشباب
مقالات ممنوعة
الانسان قمة التطور
افتحوا لها الباب
الصحافة حرفة ورسالة
زوجى تزوج
معجم الأفكار



لخص سلامة موسى على صفحات هذا الكتاب أشهر الأحلام التى رسمها الفلاسفة القدماء والمحدثين وتخيلوها عن روية وتدبير ، يرجون بها صلاح مجتمعهم ومستقبل الإنسانية. فهو ينتقل من مدينة أفلاطون الفاضلة ، إلى أحلام مور وأندريا وبيكون وكامبانيلا. ثم يدرس ما طرأ على تلك الأحلام بدخول الثورة الصناعية وظهور المذهب الأشتراكى. ويختم هذا كله بحلمه الخاص: «خيمى» أو مصر سنة ٢١٠٥.

المستقبل بالفجالة والاسكندرية
ومكتبة المعارف ببيروت